- ٩٢٠٩ -

ثم دخلت

سنة سبع عشرة وستمائة

وفي هذه السنة كان ظهور التاتار خذلهم الله.

وفيها: يوم الأحد ثاني شعبان توفي إمام المالكية بدمشق برهان الدين علي علوش بن عبد الله المغربي، ودفن بجبل قاسيون، وكان عالما بالأصول، والفروع، والعربية، ونشأ له ابن فاضل في علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن علي، توفي أيضا وهو شاب رحمه الله تعالى.

وفيها: توفي في رجب تقي الدين عبد الرحمن بن أبي منصور بن نسيم ابن الحسين بن علي المقدسي، أبو الحسن، سمع الكثير من الشيخ الحافظ أبي القاسم بن عساكر، وأكثر طباق السماع عليه في الأجزاء وغيرها موجودة بخطه.

وفيها: في جمادى الآخرة توفي زين الدين أبو البركات داود بن أحمد بن محمد بن ملاعب البغدادي، المدبر لمجالس الحكام بدمشق، وكان شيخا معمرا مولده ببغداد منتصف المحرم سنة اثنين وأربعين وخمسمائة يروي عن أبي الوقت وغيره، سمعت عليه صحيح البخاري سنة أربع عشرة وستمائة، ويروي أيضا هو وأخته حفصة عن أبي الفضل محمد بن عمر ابن يوسف الأرمو ي رحمهما الله.

وفيها: توفي الشيخ عتيق بن سلامة الأندلسي، ومولده سنة ست عشرة وخمسمائة، عاش مائة سنة ودفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق، وكان شيخا صالحا مشهورا، زرته في مرضه مع شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله، وطلب لي منه الدعاء فدعا لي، ووجدت بركة دعائه، وكانت له عبادة جميلة.

وفيها: يوم السبت ثالث عشر جمادى الأولى توفي الحافظ عماد الدين أبو القاسم علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم بن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن الدمشقي، خرج عليه قوم فجرحوه بالقرب من خانقين في توجهه للسماع بتلك البلاد، ثم حمل إلى بغداد فتوفي فيها، ودفن بالجانب الغربي منها بمقبرة الشونيزية رحمه الله، ومولده في ربيع الآخر سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، قال: انشدنا الخشوعي، أنشدنا ابن الأكفاني في المروحة:

ومروحة تروح كل هم
ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب
وفي أيلول يغني الله عنها

وفيها: نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف، وأغار في أرض سنجار وساعده صاحب ماردين، فسار إليه الأشرف، فدخل ابن المشطوب إلى تل أعفر، فأنزله بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الأشرف، فألقاه الحاجب على الجب فمات بالقمل والجوع، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا مع الأشرف فكاتب عليه، واتفق مع ابن المشطوب فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم قيصر المعروف بتعاسيف إلى قرقيسيا وعانه، فعلق نور الدين رجليه تحت القلعتين وعذبه فسلمت إلى تعاسيف جميع بلاده، وأراد الأشرف أن يرميه في الجب فتشفع إلى أخيه الملك المعظم، فشفع فيه فأطلقه الأشرف، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه فاشترى بستان ابن حيوس بنواحي العقيبة وبنى فيه وأقام به.

وفيها: قتل صاحب سنجار أخاه فسار الأشرف إليها فأخذها، وعوض صاحبها الرقة.

وفيها: في رجب كانت وقعة البرلس بين الكامل والفرنج،وكانتوقعة عظيمة قتل الكامل منهم عشرة آلاف، وغنم خيولهم وسلاحهم، ورجعوا إلى دمياط مهزومين.

وفيها: عزل المعظم المبارز المعتمد عن ولاية دمشق وولى الغرز خليلا.

وحج المعتمد بالناس من الشام في هذه السنة. ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التاتار في البلاد، وحج من بغداد آقباش الناصري وقتل بمكة، وعاد حاج العراق على طريق الشام.

واستفحل أمر التاتار في هذه السنة، ومات فيها خوارزم شاه محمد بن تكش، وقد ذكرنا صفة موته وماتم له مع التاتار في هذه السنة وقبلها في الكتاب الذي اختصرت في سيرة الدولتين العلائية والجلالية.

وذكر أبو المظفر سبط ابن الجوزي: أنه توفي في سنة خمس عشرة، ووهم في ذلك وقال: قصد العراق في أربع مائة ألف، ووصل إلى همذان يريد بغداد، وقيل كان معه ستمائة جتر تحت كل جتر ألف، وكان قد أفنى ملوك خراسان، وماوراء النهر، وقتل صاحب سمرقند، وكان حسن الصورة،، وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها، وكان ذلك سببا لهلاكه.

قال: ولما نزل همذان كان في عسكره سبعون ألفا من الخطا فكاتب العلقمي، يعني وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد، فاتفقوا مع الخطا على قتله، وبعث العلقمي إليهم بالأموال والخيول والخلع سرا فكان ذلك سببا لوهنه، ولما علم خوارزم شاه بذلك سار من همذان طالبا خراسان ونزل مرو، والتقى في طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا، فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره، وكان خاله من الخطا وقد حلفوه أن لايطلعه على مادبروا عليه، فجاء إليه في الليل وكتب في يده

صورة الحال ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول: خذ لنفسك فالساعة تقتل، فقام فخرج من تحت ذيل الخيمة ومعه ولداه جلال الدين وآخر فركب وسار بهما، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها فلم يجدوه فنهبوا الخزائن، والخيول، والجواري، فيقال إنه كان في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل قماش أطلس وغيره وعشرون ألف فرس وبغل، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك، فتمزق الجميع ونهب، وأما خوارزم شاه فهرب إلى البحر، وركب في مركب صغير إلى جزيرة بها قلعة ليتحصن بها فأدركه الموت دون صعود القلعة فدفنوه على ساحل البحر، وهرب ولده جلال الدين وأخوه إلى الهند، وجاء فدلوا عليه فنبشوه، وقطعوا رأسه وأخذوه، وعادوا وتفرقت الممالك بعده وأخذت البلاد(٨٧).

وفيها:توفي الملك الفائز سابق الدين ابراهيم بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وكان قد حالف ابن المشطوب والأمراء بمصر على الكامل لما ملك الفرنج دمياط، ولولا أخوهما المعظم يمسك ابن المشطوب وينفيه إلى الشرق على ماسبق ذكره لتم لهم ماأرادوا، ولما كانت وقعة البرلس.

قال الكامل للفائز : هؤلاء الفرنج قد استولوا على البلاد وقد أبطأ علينا الملك المعظم، ومالملوك الشرق غيرك، وتوجه إلى الأشرف وعرفه مانحن فيه من الضائقة، فسار إلى الشرق، وكان الأشرف على الموصل فمرض الفائز بين سنجار والموصل، وقيل إنه سم فمات، فردوه إلى سنجار، فدفن عند تربة عماد الدين زنكي رحمه الله، قيل إنه مات في شعبان من السنة.

وفيها: توفي أبو عزيز قتادة بن إدريس أمير مكة الشريف العلوي الزيدي الحسني، كان عادلا منصفا، نقمة على عبيد مكة والمفسدين، والحاج في أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم، وكان شيخا مهيبا

طوالا، وماكان يلتفت إلى أحد من خلق الله، ولاوطىء بساط الخليفة ولاغيره، وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب وهو في داره، وكان يقول: أنا أحق بالخلافة، ولم يرتكب كبيرة على ماقيل وكان في زمانه يؤذن في الحرم« بحي على خير العمل» على مذهب الزيدية، وكتب إليه الخليفة يستدعيه ويقول: أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك، وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك، ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأحسن إليك فكتب إليه:

ولي كف ضرغام أذل ببطشها
فأشري بها بين الورى وأبيع
وكل ملوك الأرض تلثم ظهرها
وفي وسطها للمجد بين ربيع
أأجعلها تحت الرحى ثم ابتغي
خلاصا لها إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة
يضوع وأما عندكم فيضيع

وفيها: توفي آقباش بن عبد الله الناصري، كان مملوكا للخليفة الناصر ابن المستضىء، اشتراه وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قربه الخليفة ولم يكن يفارقه، فلما كبر ولاه إمرة الحاج، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب، حج في هذه السنة ومعه خلع وتقليد من الخليفة لحسن بن قتادة، وكان قتادة قد مات كما ذكرنا، فلما وصل آقباش إلى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن، وسأله أن يوليه إمارة مكة، وقال: أنا أكبر ولد قتادة فلم يجبه وظن حسن أن آقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة، وجاء آقباش فنزل بعد أيام منى بالشبيكة ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة، فركب آقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين،

فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه فقال: ماقصدي القتال فلم يلتفتوا إليه وانهزم أصحابه وبقي وحده، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض فقتلوه، وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح فنصبه بالمسعى عند دار العباس، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى، وأراد حسن نهب الحاج العراقي، فمنعه أمير حاج الشام المبارز وخوفه من الأخوين الكامل والمعظم ملكي مصر والشام، فأجابه وكف عن ذلك، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما، ولم يخرج الموكب للقاء الحجاج ، وأدخل الكوس والعلم في الليل، وكان سادس عشر ذي الحجة.

قلت: وكان في حج الشام في هذه السنة شيخنا فخر الدين أبو منصور بن عساكر، فأخبرني بعض الحاج في ذلك العام أن الحسن بن قتادة أمير مكة جاء إليه، وهو نازل داخل مكة، فقال له: قد أخبرت أنك خير أهل الشام فأريد أن تصير معي إلى داري، فلعل ببركتك تزول هذه الشدة عنا، فسار معه إلى داره مع جماعة من الدمشقيين، فأكلوا شيئا فما استتم خروجهم حتى قتل آقباش، وزال ذلك الإستيحاش.

وفيها: مات الوزير ناصر الدين بن مهدي الذي كان وزير الخليفة ببغداد، وقبض عليه كما ذكرنا في سنة أربع وستمائة، واعتقل بدار طاشتكين وبها مات في جمادى الأولى وفتح له جامع القصر، ومشى بين يديه أرباب الدولة ودفن بمقبرة موسى بن جعفر، وكان جبارا قاسيا، وكان يدعي أنه شريف علوي، وقد طعن في نسبه.

وفيها: توفي الملك المنصور صاحب حماة، واسمه محمد بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان شجاعا محبا للعلماء، والفضلاء، وكان عنده جماعة لهم عليه الرواتب، وصنف كتابا سماه« المضمار»(٨٩) جمع فيه جملة من التواريخ وأسماء من ورد عليه، وأقام عنده في عشرة

مجلدات، وكان حفظ المسلمين لما هاجم الفرنج حماة في سنة إحدى وستمائة، وثبت ووقف، وكانت وفاته بحماة في شوال، ودفن عند أبيه وقام بعده ولده الأكبر الملك الناصر قليج أرسلان، ثم أخذ الكامل منه حماة وأعطاها أخيه المظفر بن المنصور، واعتقل قليج أرسلان في الجب بمصر، فمات به على أقبح حال.

وفيها: توفي صاحب آمد الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد ابن قره أرسلان بن أرتق، وكان شجاعا، عاقلا، جوادا، محبا للعلماء، وكان الأشرف بن العادل يحبه، وجاء غير مرة إلى خدمة الأشرف إلى دنيسر وغيرها، ومات بآمد وفي صفر، وقام بعده ولده المسعود، وكان بخيلا فاسقا، وهو الذي أخذ منه الكامل آمد حمله إلى مصر فحبسه في الجب مدة، ثم أطلقه فمضى إلى التاتار ومعه أموال فأخذت.

قلت: ذكر الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري رحمه الله تعالى في كتاب الوفيات: أن صاحب آمد المذكور توفي سنة تسع عشرة وستمائة، وهو الصحيح، وقد تصحف على صاحب هذا التاريخ سبع عشرة من تسع عشرة[٩٠] والله أعلم.

ولقد رأيت بخط الشيخ زكي الدين أيضا في كتاب « الفوائد السفرية» أن الملك المسعود سليمان بن محمد، وهو أخو الصالح المذكور، كان متولي آمد وسقط من سطح فمات سنة ست وتسعين وخمسمائة، وتولى مكانه أخوه الصالح محمود إلى أن مات.

وفيها: توفي أبو عبد الله بن الخبازي، واسمه: الحسين بن أحمد بن الحسين من أهل باب البصرة، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان حفظه للحكايات والأشعار والملح.

قال أبو المظفر: وكان يتردد إلى جدى ويعجبه كلامه، وسمعه يوما

يحكي لـه أن ابن عقيل سئـل فقيل لـه أن الحمار يزد له في السنـة في ليلة واحدة فأيما هي هذه الليلة؟ فقال ابن عقيل: مايعرف هذه الليلة إلا من قد كان حمارا.

قال: ودخـل رجل إلى الكرخ فلقيتـه امرأة فقالـت له: أبو بكـر، كيف أنت؟ فقـال: أهلا ياعيشـة. قالت: فـأنا اسمي عيشه؟ قال: فأقتـل أنا وحدي، وكانت وفاته برمضان سمع شهدة وطبقتها وكان ثقة.

وفيها: تـوفي شيخ الشيـوخ صدر الـدين أبـو الحسن محمـد بن شيـخ الشيـوخ عماد الديـن محمـد بن حمويـة، والد أولاد شيـخ الشيـوخ الذيـن اشتهروا بـالأمر والـوزارة بمصر في أيام العادل أبي بكـر بن أيـوب، وابنه الكامل محمـد وذريته، وكان أبوه عمـر قد ولاه نور الديـن بن زنكي رحمه الله خوانك الشـام، وكان يحترمه ويحبه ومـات سنة سبع وسبعين وخمسمائة وصدر الديـن بدمشق عند أبيه فـولاه صلاح الدين المشيخـة مكان أبيه، وزوجه الشيخ قطب الدين مسعود النيسابـوري ابنته، فأولدها ابنه شمس الدين، تـوفي قديما، ثم تزوج ابنة ابن أبي عصرون، وأولـدها أولاده الأربعة المشهورين: عماد الـدين عمر، وفخر الـدين يوسف، وكمال الـدين أحمد، ومعين الدين حسن، وسيـأتى ذكر كل منهم، وكان صدر الـدين قد ناب عن قطب الدين النيسابوري في التدريس بـالزاوية الغربية بجامع دمشق وبمدرسـة جاروخ، وانتفع بصحبتـه، وكان قـد نفعه في بلاد العجـم، ثم ولاه العـادل بمصر التـدريـس بالشـافعـي، ومشهـد الحسين، والنظـر في الخانقاه الكبرى بـدار سعيد السعـداء بين القصرين، ودار الـوزارة، وكان فاضلا فقيهـا لايتكلم فيما لايعنيه، وكانـت له الحرمة الوافـرة عند العادل ابـن أيـوب وأولاده، ولما استـولى الفـرنج على دميـاط بعثـه الكـامـل، إلى الخليفـة النـاصر يستنجـده على الفـرنـج، فمـرض بين حـران والموصـل، ووصل إلى الموصـل في منتصف جمادى الآخـرة، فتوفي بها بعلـة الذرب في

الرابع والعشرين منه، ودفن إلى جانب قضيب البان، وعمره ثلاث وسبعون سنة.

وفيها: في العشر الأول من ذي الحجة توفي الشيخ عبد الله اليونيني، أسد الشام، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها يونين، وكان صاحب رياضات ومجاهدات، وكرامات، وإشارات وقد رأيته بجامع دمشق.

قال سبط ابن الجوزي: كان لايقوم لأحد من الناس تعظيما لله تعالى، ويقول: لاينبغي القيام إلا لله تعالى، صحبته مدة، وماكان يدخر شيئا ولايمس بيده دينارا ولادرهما، كان زاهدا، ورعا، عفيفا ومالبس طول عمره سوى الثوب الخام، وقلنسوة من جلد الماعز تساوي نصف درهم، وفي الشتاء يبعث له بعض أصحابه فروة يلبسها، ثم يؤثر بها في البرد، وكان إذا لبس الثوب يقول هذا لفلان، وهذا لفلان، وقال لي يوما ياسيدي: أنا أبقى أياما في هذه الزاوية، وكنا ببعلبك ماآكل شيئا فقلت له: أنت صاحب القبول فكيف تجوع؟ فقال: لأن أهل بعلبك يتكل بعضهم على بعض فأجوع أنا.

قال: وحدثني عبد الصمد خادمه قال: كان يأخذ ورق اللوز فيفركه ويسفه، وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يزوره ويحبه، وكان الشيخ يهينه فما قام له يوما قط، وكان يقول له: يامجيد أنت تظلم وتفعل وتصنع، وهو يعتذر إليه، وكان العادل قد أظهر بدمشق ضرب قراطيس سود فقال الشيخ عبد الله: يامسلمين انظروا إلى هذا الشيخ الفاعل الصانع يفسد على الناس معاملاتهم، وبلغ العادل فأبطلها، وكان يقول لصاحبه الفقيه محمد الحنبلي: في وفيك نزل:(إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل)[٩٢]أنا من الرهبان وأنت من الأحبار.

وكان يستوحش من الناس فتارة يكون بجبل لبنان، وتارة يكون بالغوطة، وتارة بثنية العقاب، وتارة بضمير، وكان يأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا، وهي ظاهر دمشق بسفح الجبل المطل على قرية دومة لأجل سخونة الماء بها، وبني له على رأس العين مسجدا صغيرا يأوي إليه، وكان الدماشقة يخرجون من دمشق إلى زيارته.

قال: فحكت لي امرأة صالحة قالت: خرجت من دمشق بعد العصر فوصلت العيون بعد العشاء الآخرة، فتوضأت وطلعت إلى زيارة الزاوية، وكانت ليلة مقمرة، وإذا بالسبع قائما على باب الزاوية، ورأيته على عتبتها فيبست ولم أقدر أتحرك، فسحبت ركبتي إلى نحو القرية، فلما كان وقت السحر هرول السبع ومضى وخرج الشيخ فرآني فقال: ويلك وإيش كان عليك منه؟.

قال: وكان شجاعا لايبالي بالرجال قلوا أو كثروا، وكان قوسه ثمانين رطلا، ومافاته غزاة بالشام قط، وكان يتمنى الشهادة ويلقي نفسه في المهالك، حكى لي عنه خادمه عبد الصمد قال: لما دخل العادل إلى بلاد الفرنج ووصل إلى صافيتا والعريمة، كان الشيخ في الزاوية ببعلبك فقال لي: ياصميد انزل إلى الفقيه عبد الله إطلب لي منه بغلة، قال: فأحضرت البغلة فركبها وخرجت معه فبتنا في تومين، وقمنا نصف الليل فجئنا إلى المحدثة قبيل الصبح فقلت له: لاتتكلم هاهنا، فهذا مكمن الفرنج، قال: فرفع صوته وقال: الله أكبر فجاوبته الجبال، فمت أنا من الفزع، ونزلت فصلى الفجر وركب وطلعت الشمس والطير لايطير في تلك الأرض، وإذا قد لاح من ناحية حصن الأكراد طلب أبيض فظنهم الاسبتار، فقال: الله أكبر ماأبركك من يوم، اليوم أمضي إلى صاحبي وساق إليهم وقد شهر سيفه، فقلت في نفسي: شيخ وتحته بغلة وبيده سيف يسوق إلى طلب الفرنج، فلما كان بعد ساعة وإذا بهم قد قربوا منا، وهم مائة حمير

وحش، قال: فانكسر قلبي وفترت همتي فقلت له: إحمد ربك فإن الله قد نظر إليك أنت واحد تريد تلاقي مائة حمار وحش على بغلة.

قال: وجئنا إلى حمص فجاءنا صاحبها أسد الدين وقدم له حصانا من خيله فركبه، ودخل معهم فعمل العجائب.

قال أبو المظفر: وحدثني القاضي جمال الدين بن يعقوب قاضي كرك البقاع، قال: كنت يوما عند الجسر الأبيض في مسجد هناك وقت الحر، وإذا بالشيخ عبد الله قد جاء فنزل نهر ثورا يتوضأ، وإذا بنصراني عابر على الجسر ومعه بغل عليه حمل خمر، فعثر البغل عند الجسر ووقع حمل الخمر وليس في الطريق أحد، فصعد الشيخ من النهر وصاح لي يافقيه تعال، فجئت، فقال: عاوني فعاونته حتى رفعنا الحمل على البغل، وراح النصراني، فقلت في نفسي: مثل هذا الشيخ يفعل كذا، ثم مشيت خلف البغل إلى العقيبة، فجاء إلى دكان الخمار فحط الحمل، وفتح الزقاق وقلب ليكيله وإذا به قد صار خلا، فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فبكى وقال: والله ماكان إلا خمرا من ساعة، وإنما أنا أعرف العلة، ثم ربط البغل في الخان وعاد إلى الجبل، وكان الشيخ قد صلى الظهر في المسجد عند الجسر، وقعد يسبح، فدخل عليه النصراني وقال ياسيدي، أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأسلم، وصار فقيرا.

قال أبو المظفر: وحكى لي جماعة من أهل بعلبك أنه كان جالسا يوما في زاويته، وإذا بامرأة طالعة وبين يديها دابة تسوقها عليها نحاس وثياب فربطتها وجاءت إليه فسلمت عليه، فقال لها: من أنت؟ قالت: نصرانية من جبة المنيطرة، قال: وما الذي جاء بك إلى عندي؟ قالت: رأيت السيدة مريم في المنام فقالت لي: اذهبي فاخدمي الشيخ عبد الله اليونيني إلى أن تموتي، قال: فقلت لها ياستي فذاك مسلم، فقالت: مالك صحيح إنه مسلم ولكن قلبه نصراني، فقال لها الشيخ: أجادت مريم، ماعرفني

غيرها.فأعطاها بيتا في الزاوية فأقامت تخدمه ثمانية أشهر، فمرضت، فقال لها الشيخ: إيش تشتهين، فقالت: أموت على دين السيدة مريم، فقال: صيحوا بالقسيس، فجاء، فقال: خذ هذه إليك، وخذ قماشها وكان يساوي خمسمائة درهم فماتت عند القسيس.

قال: وحكى بعض أهل بعلبك أنها ماماتت إلا مسلمة عند الشيخ، وتصدق الشيخ بما خلفت.

قال أبو المظفر: كنت اجتمعت به في الشام من ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة، وكان له تلميذ اسمه توبة، وكان من الصالحين الأجواد، وسافرت إلى العراق في سنة أربع وستمائة وحججت، فلما كان يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد مستقبل الكعبة وعليه الثوب الخام، وعلى رأسه القلنسوة السوداء فسلمت عليه فرحب بي وسألني عن طريقي، وقعدت عنده إلى قريب الغروب، ثم قلت له: ماتقوم نروح إلى المزدلفة، قال: اسبقني أنت فلي رفاق، ونزلت من الجبل، وأتيت المزدلفة ووقفت بها وجئت إلى منى فدخلت مسجد الخيف، وإذا بالشيخ توبة خارجا من المسجد فسلم علي فقلت: أين نزل الشيخ؟ ظنا مني أنه قد حج معه، فقال: أيما شيخ: قلت: عبد الله قال: خلفته ببعلبك ففطنت، فقلت: مبارك فلزم بيدي وبكى، وقال بالله حدثني إيش معنى هذا؟ فقلت: رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث، ورجعت أنا على بغداد وجاء توبة إلى دمشق، وحدث الشيخ عبد الله الحديث، فحدثني توبة قال: قال لي الشيخ: ماهو صحيح منك فلان فتى، والفتى مايكون غمازا، فلما عدت إلى الشام عتبني الشيخ فقلت: توبة تلميذك، فقال: لاتعد إلى مثلها كأنه كره أن يتحدث له بكرامة في حال حياته.

قال: حكى لي عبد الصمد خادمه، قال: لما كان يوم الجمعة في العشر

الأول من ذي الحجة نزل فصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شيء، ودخل الحمام قبل الصلاة واغتسل وكان عليه ثوبان قد سماهما لامرأتين وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى فقال له ويحك ياداود انظر كيف غدا، فما فهم داود وقال: ياسيدي كلنا غدا في خفارتك، ثم صعد الشيخ إلى المغارة وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التى كان ينام تحتها ويقعد عندها وعندها قبره، وكان في نهار الجمعة قد نخرت الصخرة وبقى منها مقدار نصف ذراع، فقال لهم: لاتطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها، قال: وبات طول الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم، ويقول: ياسيدي فلانة اجتزت بها في الموضع الفلاني اعطتني مشربه من الماء فشربتها وقليل ماء فتوضأت به رب اغفر لها وفلان أحسن إلي فأحسن إليه، وطلع الصبح فصلى وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها فجلس عليها وفي يده مسبحته وقام الفقراء يتممون الصخرة، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها والشيخ قاعد نائم والمسبحة بيده، وجاء خادم من القلعة إليه في شغل فرآه نائما قاعدا بحاله، فما تجاسر أن يوقظه فقعد ساعة وطال عليه، فقال: ياعبد الصمد ماأقدر أقعد أكثر من هذا، قال: فتقدمت إليه وقلت: سيدي سيدي ، فلم يتكلم فحركته فإذا به ميتا، وقد فرغوا من الصخرة وعملوا فيها ساعة وهو ميت فارتفع الصياح، وكان صاحب بعلبك في الصيد فأرسلوا وراءه، فرآه في تلك الحال لاوقع ولاوقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم، فقال: دعونا نبني عليه بنيانا وهو على حاله ليكون أعجوبة للدنيا أن الانسان يموت وهو قاعد ولايتغير، فقالوا: اتباع السنة أولى، وطلع داود فغسله ودفع الثوبين إلى المرأتين، ولما ألحدوه قال له الحفار ياشيخ عبد الله اذكر ماعاهدتنا عليه، قال: ففتح عينيه ونظر إلي شذرا ودفن عند اللوزة يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله(٩٣) .

ثم دخلت

سنة ثماني عشرة وستمائة

ففيها: توجه المعظم عيسى إلى أخيه الأشرف موسى، واجتمعا على حران، وكتب صاحب ماردين ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه، فسأله فسار إلى ماردين فنزل صاحب ماردين والتقاه في دنيسر وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أراد، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين، وزوج ناصر الدين ابنته الأخرى وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ورجع المعظم إلى حران.

وفيها: وصلت الأخبار بوصول التاتار إلى كرمان شاه قريبا من بغداد، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت في الصلاة، وحصن بغداد واستخدم العساكر.

وفيها: في جمادى الآخرة استرد المسلمون دمياط من الفرنج، وكان المعظم عيسى من أحرص الناس على خلاص دمياط وعلى الغزاة، وكان مصافيا لأخيه الكامل، وكان أخوهما الأشرف مقصرا في حق الكامل، وكان مباينا له في الباطن، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع لهم المعظم الفرات وسار الأشرف في آثاره، وجاء المعظم فنزل حمص، ونزل الأشرف سلمية.

قال أبو المظفر: وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظم على حمص في ربيع الآخر، فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى هنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في تأخيره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، وهو صديقك فاشتهي تروح إليه فقد سألني عنك

مرارا، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته ومضيت إلى سلمية، وبلغ الأشرف وصولي فخرج من الخيمة والتقاني وعاتبني على انقطاعي عنه.

وجرى بيني وبينه فصول، وقلت له: المسلمون في ضائقة فإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت، وعفوا آثار مكة، والمدينة، والشام، وأنت تلعب، قم الساعه وارحل فقال: ارموا الخيام والدهليز، فسبقته إلى حمص والمعظم عينه إلى الطريق، فلما قيل له وصل فلان ركب والتقاني وقال:مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا بكرة يصبح أخوك على حمص فدعا لي، ولما كان من الغد أقبلت الأطلاب وجاء طلب الأشرف، والله مارأيت أجمل ولاأحسن رجالا ولا أكمل عدة، فسر المعظم سرورا عظيما وجلسوا تلك الليلة يتشاورون، فاتفقوا على الدخول في السحر إلى طرابلس يشوشون على الفرنج وكانوا على حال فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم: ياخوند: عوض ماندخل الساحل وتضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان مانروح إلى دمياط، ونستريح؟ فقال له المعظم: قول رماة البندق؟ قال: نعم، فقبل المعظم قدمه، وقام الأشرف فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضاري يصيح الرحيل الرحيل إلى دمياط، وكان يظن أن الأشرف مايسمح بذلك، وساق المعظم إلى دمشق وتبعته العساكر، ونام الأشرف في خيمته إلى قريب الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته أحدا، فقال: وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت وساق إلى دمشق، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى فأقام إلى سلخ جمادى، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق، وكان هو وأخوه المعظم في الطيارة في القلعة، وساروا إلى مصر غرة جمادى الآخرة.

قلت: كنت حاضرا تحت القلعة وتلك العساكر تمر أميرا بعد أمير، والناس يتضرعون ويدعون لهما بالنصر، فاشتدت قوى المسلمين وأيقنوا

بالظفر، ولأجل ما كان للملك المعظم من الآثار الجميلة في سفره إلى الشرق تجمع هذه العساكر وتيسر الوصول بها إلى مصر قال شيخنا أبو الحسن السخاوي رحمه الله من جملة قصيدة له عند فتح دمياط:

سرى الملك المولى المعظم في الدجى
فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الاسلام بعد كآبة
سرورا وآوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بها
فريدا وأضحى بحرها من نصيبه

وسمعت ممن يوثق به في مجلس شيخنا أبي الحسن السخاوي رحمه الله يقول: أنه رأى في منامه في بعض تلك الليالي كأن هاتفا يقول له:

لاتيأسن لعسرة فوراءها
يسران وعد ألبس فيه خلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولها
لله في أعطافها ألطاف(٩٤)

قلت: والبيتان لأبي الفتح البستي.

قال أبو المظفر: وأما الفرنج الذين كانوا بدمياط فإنهم خرجوا بالفارس والراجل، وكان البحر زائدا جدا فجاؤوا إلى ترعة فأرسوا إليها، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان، وأحدقت بهم عساكر الكامل، فلم يبق لهم وصول إلى دمياط، وجاء اسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط، وكانوا خلقا عظيما، وانقطعت أخبارهم عن دمياط، وكان فيهم مائة كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا والدوك، والدوكات، ونائب البابا، ومن الرجالة

مالايحصى، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم، ولو أقاموا يومين أخذهم برقابهم، فبعث إليهم الكامل ابنه الصالح أيوب، وابن أخيه شمس الملوك، وجاءت ملوكهم إلى الكامل فالتقاهم وأنعم عليهم، وضرب لهم الخيام، ووصل المعظم والأشرف في تلك الحال إلى المنصورة في ثالث رجب، فجلس الكامل مجلسا عظيما في خيمة كبيرة عالية، ومد سماطا عظيما وأحضر ملوك الفرنج والخيالة ووقف في خدمته أخواه المعظم والأشرف وغيرهما، وقام راجح الحلي الشاعر فأنشده:

هنيئا فإن السعد راح مخلدا
وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا
مبينا وإنعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه
وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـ
ـطغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه
صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شلو مجدل
ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعا
عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه
وموسى جميعا ينصران محمدا

قلت: وبلغني أنه وقت الإنشاد أشار عند قوله عيسى إلى المعظم،

وعند قوله موسى إلى الأشرف، وعند قوله محمدا إلى الكامل، وهذا من أحسن شيء اتفق .

قال أبو المظفر: ووقع الصلح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب، وسار بعض الفرنج في البر، وبعضهم في البحر إلى عكا، وتسلم الكامل دمياط ووصلت العساكر الشرقية والشامية، وقد أخذ الكامل دمياط، وعاد المعظم إلى الشام، وأقام الأشرف بمصر عند الكامل فغير الله سبحانه القلوب، فصارا متصادقين، واتفقا على المعظم(٩٥) .

وفيها: حج بالناس من الشام أمير يقال له شقيفات، وحج أبي اسماعيل معه تلك السنة، وحج بالناس من العراق ابن أبي فراس ومعه كتاب الخليفة إلى مكة والمدينة بإعادة ولي العهد أبي نصر محمد إلى العهد، وكتب إلى الآفاق بذلك.

وفيها: ولى المعظم جمال الدين المصري الوكيل، قضاء الشام، وكان يكتب في السجلات قاضي قضاة الشام وذلك في رجب.

وفيها: توفي الشيخ الشهاب محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي أحد الشيوخ الصالحين الساكنين بالدير بسفح جبل قاسيون، وكنت أراه يوم الجمعة قبل الزوال يجلس على درج المنبر السفلي بجامع الجبل، وبيده كتاب من كتب الحديث، وأخبار الصالحين يقرأه على الناس إلى أن يؤذن المؤذن للجمعة.

قال أبو المظفر: وكان زاهدا عابدا، ورعا، فاضلا في فنون العلوم، وسافر إلى بغداد، وسمع الكثير من شهدة وابن البطي، ومشايخ الشام وغيرهم، وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة فتشوش خاطره، وكان مما يغسل باطن عينيه قد قل نظره، وكانت وفاته يوم الأحد سلخ صفر،

ودفن بقاسيون عند أهله، وكان سليم الصدر من الأبدال ماخالف أحدا قط، رأيته يوما وقد خرج من جامع الجبل فقال له انسان: ماتروح إلى بعلبك، فقال: بلى ، فمشى من ساعته إلى بعلبك بالقبقاب، قلت: وسيأتي ذكر ولديه القاضي نجم الدين أحمد، والصلاح موسى.

وفيها: توفي صاحبنا ضياء الدين علي بن عبد السيد بن ظافر القوصي ابن أخت الشهاب القوصي، وكان من أصحاب شيخنا السخاوي، وشيخنا فخر الدين بن عساكر، وله شعر حسن، ومولده بقوص سنة سبعين وخمسمائة، واجازتي من الشيخ علم الدين في القرآن عندي بخطه.

وفيها: في ليلة الحادية والعشرين من رجب توفي خطيب بيت الأبار الشيخ موفق الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن كامل المقدسي، وكان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة الخطيب جمال الدين الدولعي في الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق، رحمهما الله.

وفيها: أو في السنة التي بعدها في ثالث عشر رجب توفي الحافظ المحدث تقي الدين أبو طاهر اسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن المصري المعروف بابن الأنماطي، كان في زمانه أحذق الناس بقراءة الحديث وكتابته، وإفادة الشيوخ، وحسن كتابة طبقات السماع، وحصل كتبا كثيرة، وكتب بخطه أجزاء عديدة، وكان سريع الكتابة والقراءة جدا مع معرفة بعلم الحديث واطلاع على دقائق فيه، وكانت كتبه تكون في البيت بالكلاسة الذي كان بيد الملك المحسن أحمد بن صلاح الدين قبله، ثم انتقل منه لما أريد اسكان الشيخ عبد الصمد الدكالي الزاهد به، ثم بقي بيد أصحاب عبد الصمد إلى الآن.

وسمعت الشيخ التقي عمر بن الصلاح رحمه الله يثني عليه بعد موته في معرفة الحديث، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده.

قال أبو المظفر: سمع الكثير ولقي الشيوخ، وكانت وفاته بدمشق ودفن بمقابر الصوفية في طريق المنيبع، وصلى عليه الموفق الحنبلي بجامع دمشق، والفخر بن عساكر بباب النصر، والجمال المصري قاضي القضاة عند قبره.

وكان سمع بمصر من البوصيري، وابن المقدسي وبدمشق من بركات ابن ابراهيم الخشوعي، ورحل إلى العراق فسمع أبا الفتح بن الميداني، وابن عبد السميع الهاشمي وابن طبرزد ، وابن سكينة، وابن الأخضر، وحنبلا.

وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندي بدمشق تاريخ الخطيب وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة.

قلت: وقرأ على القاضي أبي القاسم بن الحرستاني من كتب البيهقي كثيرا، مثل: السنن الكبرى ومعرفة السنن والآثار، والدلائل النبوية، والآداب والدعوات.

ثم دخلت

سنة تسع عشرة وستمائة

ففيها: ظهر بالشام جراد كثير لم يعهد مثله، فأكل الزرع والشجر والثمر، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيرا يقال له السمرمر، يأكل الجراد فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق ورتب معه صوفية، وقال: يمضي إلى العجم فهناك عين تجتمع فيها السمرمر فتأخذ من مائها في قوارير وتعلقه على رؤوس الرماح، فكلما رآه السمرمر تبعك، وماكان مقصوده إلا أن يبعث البكري إلى جلال الدين خوارزم شاه، واتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه، فاجتمع البكري بالخوارزمي وقرر معه الأمور وجعله سندا له، وكان الجراد قد قل، فلما عاد البكري كثر الجراد، فقال الناس في ذلك أشعارا، و ظهر فعل المعظم للناس، وعلم الكامل والأشرف، وشاع الحديث فقيل للمعظم لو كنت بعثت رسالة مع بعض التجار الذين يسافرون إلى خراسان كان أولى، ولما عاد البكري من الرسالة ولاه المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.

وفيها: حج من العراق ابن أبي فراس مستقلا، ومن الشام كريم الدين الخلاطي ومعه الركن الفلكي، وخلق كثير، وكانت الوقفة الجمعة، وازدحم الناس في المسعى فمات جماعة.

قال أبو المظفر: وكنت على عزم الحج، فخرجت على هجين إلى مسجد القدم، فجاء حوراني عليه فروة ليصافحني فنفر منه الهجين فأرماني، فأقمت شهرين أداوي ظهري.

وحج بالناس من اليمن أطسيس بن الكامل، ولقبه الملك المسعود في عسكر عظيم، فجاء إلى الجبل، وقد لبس هو وأصحابه السلاح ومنع علم الخليفة أن يصعد به إلى الجبل، وأصعد علم أبيه الكامل وعلمه

وقال لأصحابه: إن أطلع البغاددة علم الخليفة فأكسروه وانهبوهم، ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس يضربون الكوسات ويتعرضون للحاج العراقي وينادون ياتارات ابن المقدم، فأرسل ابن أبي فراس أباه، وكان شيخا كبيرا إلى اطسيس وأخبره بما يجب من طاعة الخليفة، ومايلزمه في ذلك من الشناعات، فيقال إنه أذن في صعود العلم قبيل المغرب، وقيل لم يأذن، قال: وبدا من أطسيس في تلك السنة جبروت عظيم.

حكى لي شيخنا جمال الدين الحصيري رحمه الله قال: رأيت اطسيس قد صعد على قبة زمزم وهو يرمي حمام مكة بالبندق.

قال: ورأيت غلمانه في المسعى يضربون الناس بالسيوف في أرجلهم ويقولون: اسعوا قليلا، قليلا، فإن السلطان نائم سكران في دار السلطنة التي في المسعى، والدم يجري من ساقات الناس(٩٧).

قلت: واستولى أطسيس على مكة وأعمالها، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم، وهو الذي بنى القبة على مقام ابراهيم عليه السلام، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن في أيامه، فرخصت الأسعار، ولعظم هيبته قلت الأشرار، وأمنت الطرق والديار.

وفيها: نقل تابوت العادل بن أيوب من قلعة دمشق إلى تربته المقابلة لدار العقيقي، أخرجوا جنازته من القلعة والتابوت مغشى بمرقعة، وأرباب الدولة حوله، ومروا به على دار الحديث إلى باب البريد إلى الجامع ووضع في صحن الجامع قبالة حائط النسر، وصلي عليه هناك، وأمهم في الصلاة عليه خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، ثم حملوا الجنازة وخرجوا بها من باب الناطفائيين شمالي الجامع خوفا من زحمة الناس في الطريق، ولم يصل إلى تربته إلا بعد جهد لضيق السكك، وبقي

القراء، والفقهاء يترددون إلى التربة غدوة وعشية كل يوم يقرأون القرآن إلى أن رتب لهم الوقف عليها، وعين لها قراء مخصوصون، ولم تكن المدرسة كملت عمارتها، وألقى فيها الدرس في هذه السنة القاضي جمال الدين المصري وحضر درسه أعيان الشيوخ، والقضاة والفقهاء، وحضر السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل وتكلم في الدرس مع الجماعة، وكان الإجتماع بايوان المدرسة، وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه شيخ الحنفية جمال الدين الحصيري، ويليه شيخ الشافعية شيخنا فخر الدين ابن عساكر، ثم القاضي محيي الدين ابن الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن يحيى الزكي، وجلس عن يسار السلطان إلى جانبه مدرس المدرسة قاضي القضاة جمال الدين المصري، وإلى جانبه شيخنا سيف الدين الآمدي، ثم القاضي شمس الدين بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي العسكر، ودارت حلقة صغيرة والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان، وكان في دور تلك الحلقة أعيان المدرسين، والفقهاء، وقباله السلطان فيها شيخنا تقي الدين بن الصلاح وغيره، وكان مجلسا جليلا لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، كما سيأتي ولكن كان قد فقد من الشيوخ الشافعية أجلهم وأكبرهم فخر الدين بن عساكر رحمه الله.

وفيها: توفي قطب الدين بن العادل بالفيوم ونقل إلى القاهرة، قرأت على عمود قبره في تربة شمس الدولة توران شاه بن أيوب ظاهر القاهرة خارج باب النصر: إنه الملك المفضل قطب الدين أبو العباس أحمد بن الملك العادل بن أيوب، توفي يوم الثلاثاء رابع عشر رجب من السنة المذكورة.

وفيها: توفي إمام الحنابلة بمكة نصر بن أبي الفرج، المعروف بابن الحصري، أقام بمكة مجاورا مدة، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجم ودفن به، سمع أبا الوقت وابن البطي، وابن المقرب وغيرهم.

قال أبـو المظفر: سمعت منه الحديـث بمكة سنة أربـع وستمائة، وكان متعبدا لايفتر من الطواف، صالحا ثقة[٩٨].

وفيهـا: في ربيع الأول تـوفي بدمشـق الشهاب عبـد الكريـم بن نجـم الديـن الحنبلي أخو البهـاء والناصـح، وهو أصغـرهم، والبهـاء هو الأكبر بين كل واحـد والذي قبله في الولادة تسـع سنين، وكان الشهاب أبـرعهم في الفقه والمناظرة، والمحاكمات، بصيرا بما يجري عنـد القضاة في الدعاوى والبينات، لكنـه كان تعصـب على شيخنا أبي الحسـن في إخراج مسجـد الوزيـر المرذقاني من يـده، وجرت أمور ربما نذكـر بعضها في ترجمتـه رحم الله الجميع وإيانا، فهو ذو رحمة واسعة.

قلـت: وفي يوم الثـلاثـاء ثـامن عشر رجـب مـن هـذه السنة استقـل القاضي جمال الديـن أبو الفضائل يونـس بن بدران بن فيروز الشـافعي، المعروف بالمصري بالقضاء في دمشق، ومامعهـا من البلاد الشامية، وصار يدعى قاضي القضاة، وقد تقدم ذكره في سنة ست عشرة وستمائة.

وفيها: توفي المحدث أبـو طاهر اسماعيل بن عبد الله بـن عبد المحسن الأنماطي ليلة الاثنين ثـالث عشر رجب بدمشـق، ودفن من الغد بمقـابر الصوفية خارج باب النصر.

ثم دخلت

سنة عشرين وستمائة

ففيها: عاد الأشرف بن العادل من مصر إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق، فتلقاه أخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ونزل بجوسق أبيه، وبدت الوحشة بين الأخوة الثلاثة: الكامل، والأشرف، والمعظم، وأصبح الأشرف في وقت السحر فساق ونزل ضمير، ولم يعلم المعظم برحيله، وصار يطوي البلاد إلى حران، وكان الأشرف قد استناب أخاه شهاب الدين غازي صاحب ميافارقين على خلاط لما سافر إلى مصر، وجعله ولي عهده بعد ان عينه ومكنه في جميع بلاده، فسولت له نفسه العصيان، وأعانه عليه قوم آخرون: أخوه المعظم وابن زين الدين صاحب إربل، والمشارقة وقالوا: نحن ورائك.

ولما وصل الأشرف إلى حران سار إلى سنجار وكتب إلى أخيه شهاب الدين غازي يطلبه، فامتنع من المجيء إليه، فكتب إليه: ياأخي لاتفعل أنت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الأعداء فوالله ماينفعونك. فأظهر العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير إلى خلاط، وكان صاحب حمص قد مال إلى الأشرف، فسار المعظم إلى حمص، ووصل إلى حماة ونزل على جبرين قرية على بابها باتفاق كان بينه وبين صاحبها، فلم ينزل اليه ولافتح له الباب، فأقطع بلاد حماة وعاد إلى حمص، وخرج إليه العسكر فظهروا عليه ونهبوا أصحابه، فعاد إلى دمشق ولم يظفر بطائل.

وفيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس، ومن الشام شرف الدين يعقوب صاحب شركس.

وفيها: توفيت والـدتي رحمها الله ودفنتها بالجبل في طريـق قريب الإماج والمغر إلى جـانب الـوادي، وأرجو أن أدفـن عندهـا، وكانـت وفاتها يـوم السبت سادس رجب، وكانت دينة صالحة رضي الله عنها.

وفيها: توفي الأمير مبـارز الدين سنقر الحلبي الصـلاحي، والد الظهير ابن سنقر.

قـال أبـو المظفر: كـان مقيما بحلـب، ثـم اتصـل إلى ماردين فخـاف الأشرف منه فبعث إلى أخيه المعظم وقـال: مادام المبارز في الشرق ما آمن على نفسي، فأرسل المعظـم ابنه الظهير غازي بن سنقر إلى أبيـه وقال: أنا أعطيه نابلس وأي شيء أراد، فجاء الظهير إلى مـاردين وعرف المبارز رغبة المعظم، وأنـه يقطعه من الشـام أي شيء أراد فقال لـه صاحب مـاردين: لاتفعل فهـذه خديعة، فأبـى وسار إلى الشام في سنـة ثماني عشرة، ووصل إلى دمشـق، وخرج المعظـم للقـائة ولم ينصفـه، وجاء فنـزل في دار شبـل الدولـة الحسامي التـي انتقلت إلى الصوفيـة عند مدرستـه بجسر كحيل، فـأقام بها والمعظـم يعرض عنـه ويماطلـه باليـوم وغـد حتى تفـرقت عنـه أصحابـه ، وكان معه جملة مـن المال، والخيل العربية المنسـوبة، والجمال، والبغال، والسلاح والمماليك شيء كثير ففرق الجميع في الأمراء الأكابر.

قال: وكـان جاري لأني كنت مقيما بتربة بـدر الدين حسـن على ثورا، وكان يـزورني وأزوره، ويشكو إلي اعـراض المعظم عنه، ومـافعل بـه ولده الظهير وكيف خدعه وأنا أسليه وأهون عليـه، ووقع إلي كتاب فيه حديث ملوك اليمـن فبينما أنا قاعـد أقرأه دخل فقـال: إيش تقرأ؟ قلـت: أخبار ملوك اليمن، فقـال: إقرأ علي، فقرأت فلان الملك عاش ألـف سنة ومات بالغم، وفلان عـاش سبعمائة سنة ومات بالغم، وذكرت مـن هذا الجنس، فقال: وأنا أموت بـالغم وكان طول النهار يجلس مغمومـا مهموما ونما فيه العذل حتـى انقطع أكلـه فأقـام عشرين يـوما لايـدخل في فيـه إلا الماء،

ومات كمدا في شعبان في دار شبل الدولة كافور، فقام كافور بأمره أحسن قيام، وجهزه أحسن جهاز، وكان صديقه من أيام شمس الدولة أخي ست الشام لأبيها، ويقال إن المبارز كان مملوك شمس الدولة، واشترى له كافور تربة على رأس زقاق شبل الدولة عند المصنع بألف درهم، وحضر جنازته خلق كثير عظيم لأنه كان محسنا إلى الناس، ولم يكن في زمانه من الصلاحية وغيرهم: أكرم منه ولاأشجع، وكان له مواقف مشهورة مع صلاح الدين وغيره، ولما مات وجدوا في صندوقه دستورا فيه ماأنفق في نعال الخيل، وذلك ثمانية عشر ألف درهم، فسألت كاتبه عن ذلك فقال: مايتعلق هذا بنعال دوابه، وإنما كان يستعرض الفرس السمين بخمسمائة دينار وأكثر فينعله أولا قبل أن يركبه، ثم يركبه فإن صلح أعطى صاحبه ثمنه وخلع عليه، وإن لم يصلح أعطى صاحبه مائتي درهم واعتذر إليه.

قال أبو المظفر: وجرت عقيب ذلك واقعة اعترض بعض الأمراء فرسا وانعله ثم ركبه فلم يصلح، وجاء صاحبه يطلبه، فقال الأمير لغلامه: إقلع نعاله وأعطه صاحبه.

قال: وماكانت الدنيا تساوي عند المبارز قليلا ولاكثيرا، ولقد حكى لي ابنه الظهير قال: وصل مع أبي إلى الشام ذهب، وجمال، وخيل، وغيرها ماقيمته مائة ألف دينار، ومات وليس له كفن، وماكفنه إلا شبل الدولة.

وفيها: توفي عز الدين المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي، المعروف بابن القلانسي، من رؤساء الشام، وجده أبو يعلى حمزة، هو صاحب ذيل التاريخ لملوك الشام إلى آخر زمنه، سمع عز الدين الحافظ أبا القاسم بن عساكر وغيره، وكان يصحب الشيخ تاج الدين الكندي، ملازما له وانتفع به، وكان كيسا متواضعا وتوفي شهر رمضان ودفن بجبل قاسيون.

وفيها: توفي محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركمانشاه أبو منصور السمرقندي، ولد سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وبرع في علم الأدب وولي حجبة الباب للخليفة ومن شعره:

سئمت تكاليف هذه الحياة
وكر الصباح بها والمساء
وقد صرت كالطفل في عقله
قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس
وأسهر عند دخول الفناء
وقصر خطوي قيد المشيب
وطالما عناني عناء
وغودرت كالطفل في عيشه
وخلفت حلمي ورائي وراء
وما جر ذلك غير البقاء
فكيف ترى فعل سوء البقاء

وكانت وفاته في ربيع الآخر ودفن بالشونيزية.

وفيها: توفي الضياء بن الزراد الدمشقي، كان قارئا طيب النغمة صيتا عالما بالقراءات، وكان فقيرا سافر من دمشق إلى ميافارقين ، واتصل بصاحبها شهاب الدين بن العادل وأقام عنده، ثم اتصل بالأشرف بن العادل.

قال أبو المظفر: واجتمعنا بخلاط سنة ثلاث عشرة وستمائة، وكان يتردد إلينا ويقرأ طيبا صحيحا، ثم خلط ودخل معهم في ماهم فيه، وجاءني يوما وهو نادم حزين يبكي فسألته عن حاله فقال: البارحة حضرت عند الأشرف وناولني قدحا من الخمر فامتنعت من شربه،

والأشرف ساكت ينظر إلي، ومازالوا بي حتى شربته فلما حصل في جوفي عض الأشرف على يده بحيث كاد يقطع أصابعه وقال: والك فعلتها حطيت الخمر على مائة وأربع عشرة سورة ،والله لو خيرت أن أحفظ القرآن كما تحفظ، وأدع ملكي لاخترت حفظ القرآن، ثم نزلت حرمته بعد ذلك، فكان يدور البلاد على أصحاب القلاع بعد ذلك لرسوم كانت له عليهم، فخرج من حران في هذه السنة قاصدا السويداء ومعه غلمان مردان ثلاثة، فنام في واد وقت الظهيرة فقتلوه وأخذوا خيله وقماشه وماله فبلغ الحاجب عليا فأرسل خلفهم فجيء بهم فقتلهم(١٠٠) .

وفيها: توفي الشرف محمد بن عروة الموصلي المنسوب إليه المشهد بغربي الجامع بدمشق، وإنما نسب إليه لأنه كان مخزنا فيه آلات تتعلق بالجامع فعزله وبيضه، وجدد في قبلته المحراب والخزانتين عن يمينه وشماله ووقف فيهما كتبا، وجعله دار حديث، ووقف على الشيخ المسمع به وعلى السامعين وقفا، وذلك قبل سنة عشرين وستمائة، ثم بعد ذلك أمر المعظم بجمع الخزائن المفرقة في الجامع، فنقل مافيها من الكتب الموقوفة إلى المشهد المذكور، وبنى لها خزائن في شرقه وغربه، وجدد ابن عروة المذكور في المشهد المذكور بركة علي يمين الداخل إليه.

قال أبو المظفر: كان ابن عروة مقيما في القدس، ويداخل المعظم وأصحابه ويعاملهم ويؤذي الفقراء والمشايخ وخصوصا الشيخ عبد الله الأرمني فإنه انتقل عن القدس بسببه، ولما خرب القدس نزل ابن عروة إلى دمشق فأقام بها يسيرا، ومات ودفن عند قباب الأتابك طغتكين(١٠١) .

وفيها: توفي في المحرم الشيخ عبد الرحمن اليمني الذي كان مقيما بالمنارة الشرقية بجامع دمشق، وكان أحد المشايخ القوالين للحق عند الملوك وغيرهم، على وجهه أنوار الخير، ولقد بلغني أنه سنة خرجت

الفرنج على بلاد المسلمين حضر عند السلطان العادل بن أيوب جماعة للإنكار عليه في عدم حفظ ثغور المسلمين، وكان هذا اليمني أبلغ الجماعة كلاما في ذلك.

قال أبو المظفر: كان زاهدا، ورعا، فاضلا منقطعا عن الناس، وكان العادل يبعث إليه بالمال فلا يقبله، ودفن بمقابر الصوفية.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الشيخ أبو الحسن الروزبهاري المدفون خارج باب الفراديس الأول، في البرج المستجد رحمه الله.

وفيها: فجع الناس بوفاة إمامين كبيرين شيخي مذهبي الشافعية والحنابلة علما وعملا، أما شيخ الشافعية فهو فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي المعروف بابن عساكر، وليس في أجداده من اسمه عساكر، وإنما هي تسمية اشتهرت عليهم في بيتهم ولعله من قبل أمهات بعضهم، وهذا البيت جليل كبير من الدمشقيين كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا، وأجلهم في زماننا دينا وعلما هذا فخر الدين بن عساكر، وفي القرن الذي قبله عماه الصائن هبة الله، والحافظ أبو القاسم، ثم ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبي القاسم، وابنه العماد بن القاسم، وأخوه الفخر تاج الأمناء أحمد، وزين الأمناء حسن، وأم الفخر أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القرشية المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد عمارة مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وبه قبر، وقبر الواعظ أبي الحسن أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الراني وبهذا السبب كان الشيخ الفخر كثيرا مايكون زائرا لمسجد القدم لأن به قبر جده لأمه ومن سلف من بيته ودفن به أيضا أخوه تاج الأمناء، وأسماء المذكورة هي أخت آمنة أم القاضي محيي الدين محمد بن علي ابن الزكي، فهو ابن خالتهم، اهتم الشيخ فخر الدين رحمه

الله من صغره بالعلم فاشتغل بالفقه على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، حتى برع في ذلك وانفرد بعلم الفتوى حتى كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار، وكان عند شيخه كالولد وزوجه ابنته فأولدها ابنا سماه باسم جده قطب الدين مسعود، ولو عاش خلف جده ووالده لأنه كان مهتماً بالعلم وتحصيله وبرز فيه لكنه توفي قبل والده بزمان ، ودرس فخر الدين مكان قطب الدين بالمدرسة الجاروخية، وهي قاعتان احداهما التي كان هو ساكنها وبها توفي، وهي التي لها باب في الحائط الغربي من ايوان المدرسة ، و الأخرى لزيقها بابها من الزقاق لزيق باب المدرسة، كان يسكنها ولده المتوفى ووقفها بعد موته على المدرسة ، ثم تولى التدريس بمدرسة القدس الناصرية ، وكان يقيم بدمشق أشهرا و بالقدس أشهرا ، ويطوف تلك الزيارات بالأرض المقدسة إلى عسقلان ونحوها.

ثم ولاه العادل بن أيوب التدريس بالمدرسة التقوية ، وكان عنده بها فضلاء الوقت من الفقهاء لجلالته حتى كانت تسمى نظامية الشام؛ وكان اذا فرغ من التدريس يظل بجامع دمشق في البيت الصغير بمقصورة الصحابة يخلو فيه للعبادة ومطالعة الكتب والفتاوى ، ومتى احتاج إلى طهارة خرج منه إلى المئذنة الشرقية فقضى حاجته بمكان الطهارة المجدد فيها خارج حائطها الكبير، وبها الماء الجاري، ثم يرجع الى مكانه والناس معتكفون عليه منتفعون به ، ولا يملون من النظر إليه لحسن سيرته واقتصاده في لباسه و لطفه و نور وجهه وكان لا يخلو لسانه من ذكر الله تعالى في قيامه وقعوده ومشيه وكان يحضر تحت قبة النسر بالجامع بعد العصر في كل يوم اثنين ويوم خميس لسماع الحديث، وهو المكان الذي كان يجلس فيه عمه الحافظ أبو القاسم إلى أن توفي، ثم أبيه الحافظ أبو محمد إلى أن توفي، ثم ابنه العماد علي إلى أن سافر إلى العراق و خراسان فكان الشيخ الفخر يجلس فيه بعده ، ثم سمعت عليه معظم كتاب « دلائل النبوة» للحافظ أبي بكر البهيقي وغيره، وكان

رحمه الله رقيق القلب سريع الدمعة فكنت أشاهده في أثناء قراءة تلك الأحاديث عليه يبكي عند سماع ما يبكي منها، ويردد مواضع المواعظ منها نحو الشعر المنسوب إلى قس بن ساعدة :

في الذاهبين الأولين
من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي بعدها
تمضي الأصاغر والأكابر
أيقنت أني لا محا
لة حيث صار القوم صائر

فكان رحمه الله يرددها ويبكي، سألته مسائل من الفقه وكتبت إليه أبياتا أطلب فيها اجازة برواية ما يجوز له عنه روايته وذلك في سنة ست عشرة وستمائة، فأجابني نظما بثلاثة أبيات وجدت بركة دعائه لي فيها، وما أعلمه فعل ذلك مع غيري، وكتبها بخطه وهي:

أجزت له قولي وفق الله قصده
وأسعده بالعلم يوم معاده
رواية ما أرويه عن كل عالم
بصير بما فيه طريق سداده
فهناه ربي بالعلوم وجمعها
وبلغه فيها استى مراده

وكان أيضا يسمع الحديث بدار الحديث النورية، وبمشهد ابن عروة أول ما فتح ، وكان السلطان العادل أبو بكر بن أيوب لما عزل القاضي زكي الدين الطاهر بن محيي الدين عن قضاء الشام، أرسل إليه أن يتولاه فأبى ، فطلب عنده ليلا، فجاء فالتقاه و أقعده إلى جانبه ، فجلس محتبيا مستوفزا(١٠٢) فأحضر الطعام فلم يمد يده إليه ، و لم يأكل منه

شيئا، فسأله أن يتولى القضاء ، و كثر عليه القول في ذلك . فقال : حتى استخير الله تعالى ، فأخبرني من كان معه ملازما له. قال: فلما رجع إلى بيته جدد الوضوء ،ووقف يصلي ويتضرع و يبكي الى الفجر فلما أصبح خرج إلى الجامع فصلى الصبح بالكلاسة ثم مضى إلى مقصورة الصحابة فصلى بها على عادته ، ثم دخل بيته الصغير الذي في الحائط ، و هو الباب الذي كان يخرج منه خلفاء بني أمية وامراؤها إلى الصلاة من لدن معاوية بن أبي سفيان إلي زمن الوليد بن عبد الملك بن مروان، فلما أخذ الوليد من النصارى جهتهم الغربية و بنى القبة و النسر جعل المحراب في وسط ذلك ، فهو الذي مقصورة الخطابة اليوم ، و الباب الأصغر فيها الذي بين المحراب و خزانة مصحف عثمان رضي الله عنه هو الباب الذي كان يخرج منه الوليد و من بعده من الخلفاء و الأمراء إلى الصلاة بالناس ، و أما الباب الكبير الخارج من المقصورة الذي يخرج منه الخطباء فهو كان لعموم الداخلين إلى دار الخلافة يؤذن لهم في ذلك من جهة الجامع ، و قد بينا ذلك أيضا في مختصرنا لتاريخ دمشق ، فلما استقر الشيخ بذلك البيت جلس يذكر الله تعالى فلما طلعت الشمس إذا رسل السلطان قد جاءو ا في كشف ما فارقهم الشيخ عليه : الجمال المصري،والنجم خليل وغيرهما ، فردهم وأصر على الامتناع و أشار بتولية الشيخ جمال الدين بن الحرستاني، فولي وكان قد خاف أن يتأذى من جهة السلطنة ، فجهز أهله للسفر ، و خرجت المحائر إلى ناحية حلب فردها العادل و عز عليه ما جرى ، فقيل له: احمد الله تعالى أن في بلادك و في زمانك من امتنع من ولاية القضاء و اختار الخروج من بلده على التولية دينا و زهدا ، و كان رحمه الله كثيرا إذا قام من الليل يؤذن للفجر بنفسه كان في مدرسته أو خارج البلد من بستان و غيره .

و بلغني أنه كان لا يأكل وحده و إذا قدم له غذاؤه استدعى من أهل مدرسته ممن حضر من يأكل معه، و كان يتورع عن المرور في رواق الجامع الذي فيه حلقة الحنابلة ، خوفا من أن يأثموا بالوقيعة فيه، وذلك

أن الجهال منهم و العوام كانوا يبغضون شيوخ بني عساكر ، لأنهم كانوا أعيان الشافعية الأشعرية ، و كان إذا جاء إلى الجامع من ناحية باب البريد يمر في صحن الجامع أو في الرواق الأوسط إلى المقصورة ، و إذا قام من اسماع الحديث تحت قبة النسر ينعطف و يخرج من باب البرادة، ويقول لمن يسأله عن ذلك يا ولدي: أخاف أن يأثموا بشيء ، و بلغني عنه أنه كان يقول: من طلب من غيره مالا يعطيه من نفسه فهو داخل في (المطففين الذين إذا اكتاولوا على الناس يستوفون. واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون) (١٠٣) و هذا كلام في غاية الجودة ، وكان العادل لما أمر ببناء مدرسته المشهورة قد عزم على أنها تكون للشيخ الفخر، و اتفق أن العادل توفي قبل كمال عمارتها ، و كان ابنه المعظم حنفي المذهب، كان في نفسه من الشيخ الفخر لما انكر عليه اظهار الخمور و تضمينها فتركه حتى حج في ولايته ، فأخذ منه المدرسة التقوية، و أخذت منه قبيل ذلك الناصرية التي بالقدس ، و لم يبق بيده إلا المدرسة الجاروخية على قلة جاريها مع كثرة مصروفها ، ثم لما تكاملت المدرسة العادلية فوضها إلى قاضيه الجمال المصري، و تركه فسبحان من جعل فيه اسوة وعمدة لمن ظلم من المشايخ و الفقهاء بعده.

قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: ولد فخر الدين في سنة خمس وخمسمائة ، وكان زاهدا، عابدا ،ورعامنقطعا إلى العلم والعبادة ، شيخا حسن الأخلاق قليل الرغبة في الدنيا ، وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر رجب ودفن على الشرف القبلي عند مقابر الصوفية (١٠٤) وكان له جنازة عظيمة ،وقبره ظاهر يزار ، وصلى عليه الملك العزيز بن العادل، ولم يتخلف عن جنازته إلا القليل ، سمع عميه أبا القاسم الحافظ،و الصائن هبة الله، و القطب النيسابوري (١٠٥) و غيرهم.

قلت : أخبرني من حضر وفاته، قال: صلى الظهر يوم توفي ثم جعل يسأل عن العصر فقيل له لم يقرب وقتها ، فدعا بماء ثم تشهد و هو

جالس ، وقال: رضيت بالله ربا . و بالاسلام دينا و بمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا، لقنني الله حجتي ، وأقال عثرتي ، ورحم غربتي ، وآنس وحدتي ، ثم قال : وعليكم السلام ،فعلمنا أنه حضرته الملائكة حينئذ و سلموا عليه ، ثم انقلب على قفاه عقيب قوله و عليكم السلام ميتا رحمه الله تعالى ، وغسله فخر الدين بن المالكي ومعه ابن أخيه عبد الوهاب بن زين الأمناءو غيره ، و كان قد اجتهد في مرضه في تملك المكان الذي دفن فيه من مستحقيه ، حفر له القبر و هو حي وكان مرضه بالاسهال ،و كانت وفاته آخر يوم الأربعاء عاشر شهر رجب و احتشد الناس من الغد لجنازته و خرجوا به من المدرسة الجاروخية على باب البريد إلى الجامع فإذا الناس في الجامع كهيئتهم يوم الجمعة ، فوضعت الجنازة ملاصقة الحائط القبلي قريب اللازوردة ، و تقدم للصلاة عليه أخوه لأبويه أبو البركات الحسن بن محمد بن هبة الله المعروف بزين الأمناء ، ثم خرجوا بالجنازة إلى ناحية الميدان الأخضر بالشرف القبلي، وقد امتلأت الطرق بالناس و من الذي قدر على الوصول إلى حمل سريره، ولولا كان الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد استاذ دار المعظم مع أصحابه، و أجناد الملك العزيز ابن العادل دائرين حول سريره بالدبابيس و العصي يمنعون الناس من قربه لتعذر وصوله إلى حفرته في يومه ، و قبره على يسار المار مغربا في طريق الشرف القبلي مقابل لرأس الميدان الأخضر قبل الوصول إلى قبر شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري بقليل ، و جعل على قبره بلاطة فيها اسمه و تاريخ وفاته يقرأها من كان خارج الشباك رحمه الله تعالى.

وأما شيخ الحنابلة فهو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الملقب بموفق الدين أخو الشيخ أبي عمر. كان إماما من أئمة المسلمين ، و علما من أعلام الدين في العلم و العمل ، صنف كتبا كثيرة حسانا في الفقه وغيره ، و لكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد في مسائل الصفات و الكلام هو على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان

من لم يوضح الأمر له فيها على جلالته في العلم و معرفته بمعاني الأخبار و الآثار ، وسمعت عليه مسند الإمام الشافعي رحمه الله ، و فاتني منه نحو ورقتين ، عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبي زرعة، و سمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين و غير ذلك ، و مولده في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة بأرض نابلس ، ووهم ابن الدبيثي في ذكر مولده ، وقال : سمع ببغداد سعد بن نصر بن الدجاجي ، و الفضل أحمد بن صالح بن شافع ، و أبا الحسن علي بن عبد الرحمن بن تاج القراء ، و الكاتبة شهدة و غيرهم . وحصل طرفا صالحا من الفقه والأصول ، و عاد الى دمشق و توفر على الاشتغال بالفقه وتدريسه، وحدث بشيء من مسموعاته.

قال أبو المظفر : ولد في شعبان سنة احدى وأربعين و خمسمائة و سافر الى بغداد مرتين : احداهما مع الحافظ عبد الغني سنة احدى وستين، والأخرى سنة سبع وستين ، و حج سنة ثلاث وسبعين ، وسمع خلقا كثيرا ، و تفقه على مذهب الامام أحمد ، و عاد إلى دمشق وكان إماما في فنون ، ولم يكن في زمانه بعد أخيه أبي عمر و العماد أزهد ولا أورع منه ، و كان كثير الحياء عزوفا عن الدنيا وأهلها ، لينا متواضعا ، محبا للمساكين، حسن الأخلاق جوادا سخيا ، من رآه كأنه رأى بعض الصحابة ، و كان النور يخرج من وجهه، كثير العبادة يقرأ كل يوم وليلة سبعا من القرآن ، و لا يصلي ركعتي السنة في الغالب إلا في بيته اتباعا للسنة ، و كان يحضر مجالسي دائما في جامع دمشق وقاسيون، و حكى أبو عبد الله بن فضل الأنطاكي قال: قلت في نفسي لو كان لي قدرة لبنيت للموفق مدرسة ، و أعطيته كل يوم ألف درهم ، قال: ثم جئت بعد أيام فسلمت عليه فنظر إلي و تبسم و قال: إذا نوى الشخص نية كتب له أجرها.

و حكى أبو الحسن علي بن حمدان الجراحي قال : كنت أبغض

الحنابلة لما شاع عنهم من سوء الاعتقاد ، فمرضت مرضا شنج أعضائي و أقمت سبعة عشر يوما لا أتحرك وتمنيت الموت، فلما كان وقت العشاء جاءني الموفق وقرأ على آيات و رقاني و قال:(و ننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) (١٠٦) و مسح على ظهري فأحسست بالعافية وقام ، فقلت يا جارية افتحي له الباب ، فقال : أنا أروح من حيث جئت و غاب عن عيني فقمت من ساعتي إلى بيت الوضوء، فلما أصبحت دخلت الجامع فصليت الفجر خلف الموفق و صافحته فعصر يدي وقال: احذر أن تقول شيئا ، فقلت : أقول ،و أقول.

و قال قوام جامع دمشق :كان ليلة يبيت بالجامع تفتح له الأبواب فيخرج ويعود فتغلق على حالها (١٠٧) .

قلت كان الموفق بعد موت أخيه أبي عمر هو الذي يؤم بالجامع المظفري (١٠٨) و يخطب يوم الجمعة اذا حضر فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبي عمر هو الخطيب و الامام ، و إمام محراب الحنابلة بجامع دمشق فيصلي فيه الموفق إذا كان في البلد ، و إذا مضى إلى الجبل صلى العماد أخو عبد الغني ، و بعد موت العماد كان يصلي فيه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني مالم يحضر الموفق، و كان بين العشائين يتنفل حذاء المحراب ، و جاءه مرة الملك العزيز بن العادل يزوره فصادفه يصلي فجلس بالقرب منه إلى أن فرغ من صلاته، ثم اجتمع به و لم يتجوز في صلاته ، و كان إذا فرغ من صلاة العشاء الآخرة يمضي إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، و يمضي معه من فقراء الحلقة من قدره الله تعالى فيقدم لهم ما تيسر ليأكلوه معه، و من أظرف ما حكي لي عنه أنه كان يجعل في عمامته ورقة مصرور فيها رمل يرمل به ما يكتبه للناس من الفتاوى والاجازات و غيرها، فاتفق ليلا أن خطفت عمامته فقال لخاطفها : يا أخي خذ من العمامة الورقة المصرورة بما فيها، ورد العمامة أغطي بها رأسي، و أنت في أوسع الحل مما في

الورقـة، فظن الخاطف أنها فضـة ، ورآها ثقيلـة فأخذهـا ورد العمامة ، و كـانت صغيرة عتيقـة فرأى أخـذ الورقـة خيرا منها بـدرجات ، فخلـص الشيخ عمامته بهذا الوجه اللطيف ، و كانـت وفاته يوم السبت يو م عيد الفطـر أول شـوال ، ودفـن بجبـل قاسيـون خلـف الجامـع المظفـري في مقبرتهم المشهورة ؛ و كـانت أيضـا جنازة عظيمـة ذات جمع وافر ؛ امتـد الناس في طرف الجبل فملؤوها .

قال أبـو المظفر : حكـى اسماعيل بـن حماد الكاتـب البغدادي قـال: رأيت ليلة عيد الفطـر كأن مصحف عثمان قد رفع من جـامع دمشق إلى السماء ، فلحقني غم شديد ، فتوفي الموفق يوم العيد .

قال: و رأى أحمد بـن سعد أخـو محمد بـن سعد الكـاتب المقـدسي ـ قال: و كان أحمد من الصـالحين – قال: رأيت ليلة العيد ملائكـة ينزلون من السماء جملـة و قائل يقـول : انزلـوا بالنـوبة، فقلـت: ما هـذا؟ قال: ينقلون روح الموفق الطيبة في الجسد الطيب

قال: وقال عبـد الرحمن بن محمد العلوي : رأيت كـأن النبي صلى الله عليه وسلم مات وقبر بقاسيو ن يوم عيد الفطر.

قال:وكنا بجبل بنـي هلال فرأينا على قاسيون ليلـة العيد ضوءا عظيما، فظننا أن دمشـق قد احترقت، و خـرج أهل القريـة ينظرون إليه، فـوصل الخبر بوفاة الموفق يوم العيد، و دفن بقاسيون.

وقـال :و كانـت وفـاته بـدمشق و حمل إلى قـاسيـون، و كان لـه جمع عظيم، سمع الشيـخ عبد القادر ، و أبا الفتـح محمد بن عبد البـاقي بن أحمد بن سلمان، و أبا زرعة طاهر بن محمد بن طاهر المقدسي ، و أبا بكر عبد الله بن محمـد بن أحمد بن النقور ، وأبا محمد بـن الخشاب، و جدي يعني أبـا الفرج بـن الجوزي و غيرهم ببغـداد ، و سمع بمكـة أبا محمـد

المبارك بن الطباخ، و بالموصل أبا الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب، وبدمشق والده أحمد ، و أبا المكارم عبد الواحد بن مسلم بن هلال، و أبا المعالي عبد الله بن عبد الرحمن بن أحمد بن صابر السلمي، و خلقاً كثيراً.

قال: وأنشدني لنفسه:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكنا
سوى القبر إني إن فعلت لأحمق
يخبرني شيبي بأني ميت
وشيكا وينعاني إلي فيصدق
تخرق عمري كل يوم وليلة
فهل مستطيع رتو ما يخترق
كأني بجسمي فوق نعش ممدد
فمن ساكت أو معول يتحرق
وإذا سألوا عني أجابوا وأعولوا
وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت في صدع من الأرض ضيق
وأودعت لحدا فوقه الصخر مطبق
ويحثو علي التراب اوثق صاحب
ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيارب كن لي مؤنسا يوم وحشتي
فإني بما أنزلته مصدق
وما ضرني أني إلى الله صائر
ومن هو من أهلي أبر و أوثق

قال : و كان له أولاد: أبو الفضل محمد، و أبو العزيحيى، و أبو المجد عيسى، ماتوا كلهم في حياته و لم أدرك منهم غير عيسى، و كان من الصالحين، و أم الجميع مريم بنت أبي بكر بن عبد الله بن سعد المقدسي؛ و كان له منها بنات صفية ، و فاطمة و لم يعقب من ولد

الموفق سوى عيسى، خلف ولدين صالحين و ماتا وانقطع عقبه (١٠٩)
ونقلت من خطه:

لا تجلسن ببـاب مـن
يـأبـى عليـك دخـول داره

وتقـول، حـاجـاتي إليـه
يعـوقهـا إن لم أداره
وأتـركـه وأقصـد ربها
يقضي ورب الـدار كـاره

ثم دخلت

سنة احدى و عشرين و ستمائة

ففيها : استرد الملك الأشرف خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وسلمها إلى مملوكه أيبك و إلى الحاجب علي، و نزل غازي إلى ميا فارقين.

و فيها: ظهر جلال الدين خوارزم شاه في أذربيجان ، و استولى عليها ، فبعث إليه الملك المعظم عيسى رجلا صوفيا من خانقاه السميساطي يقال له الملق في رسالة و اتفق المعظم و مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل مع الخوارزمي على الأشرف ؛ وبعث المعظم ولده الناصر داوود إلى زين الدين رهينة، و عبر الفرات عند الحديثة و مضى إلى إربل.

و فيا استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أن محمود بن القاهر قد مات ، و قد أمر بخنقه كما سبق ذكره.

و فيها : بنى الملك الكامل دار الحديث التي بين القصرين بالقاهرة ، و جعلها بيد الشيخ الحافظ أبي الخطاب بن دحية ، و قد اجتمعت به فيها في سنة ثمان و عشرين كما سنذكره.

و فيها : قدم الملك المسعود أطسيس من اليمن على أبيه الكامل بالقاهرة طامعا في أخذ الشام من عمه المعظم ، و كان معه من الهدايا شيء عظيم، من جملة ذلك ثلاثة من الفيلة أحدهما كبير و يدعى بالملك وعليه محفة بدرابزين يقعد فيها عشرة أنفس ، و قباله راكب على رقبته و بيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد، و خرج الكامل للقاء ولده فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سواسها فوضعت رؤوسها بين

يدي الكامل خدمة له ، و كان في الهدية مائتا خادم و أحمال عود وند ومسك و عنبر وتحف اليمن.

وفيها: جرت بالعراق واقعة عجيبة : ببغداد قرية يقال لها بعقوبا فيها نخل كثير ، و لها ناظر متشيع، و كان بها رجل من أهلها له نخل فصادره الناظر و أخذ منه ألفي نخلة فجعل يسب الناظر و يدعو عليه؛ و بلغ الناظر فأحضره و أمر بضربه فقال له : بالله عليك انصفني. فقال: قل . قال: أنتم تسبون أبا بكر و تقولون أخذ فدك من فاطمة وانما في فدك نخيلات يسيرة، تأخذ أنت مني ألفي نخلة و أسكت؟ فضحك الناظر و رد عليه نخله.

وفيها : حج بالناس من بغداد ابن أبي فراس، و من الشام شجاع الدين علي بن السلار.

وفيها: حججت من الشام مع والدي رحمه الله على طريق تبوك والعلاء ، و هي أول السنين الأربع المتصلة التي وجد الحج فيها هنيئا مريئا من رخص الأسعار والأمن في الطريق الشامية و بالحرمين، أما في المدينة فبسبب أن أميرها كان من أتباع صاحب الشام الملك المعظم عيسى ، فكان يدير الحرس على الحاج الشامي ليلا ، و أما مكة فبسبب أنها صارت في المملكة الكاملية المسعودية ، فانقمع بها المفسدون وسهل على الحاج أمر دخول الكعبة، فلم يزل بابها مفتوحا ليلا و نهارا مدة مقام الحاج فيها ، و كان الكامل قد أرضى بني شيبة سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم عوضا عما كانوا يأخذونه باغلاق الباب، و فتحه لمن أرادوا وكان الناس ينالون من ذلك شدة، و يزدحمون عند فتح الباب و يتسلق بعضهم على رقاب بعض و ينكسر بعض و يشج بعض ، فزال ذلك عن الناس بتلك السنة و ما بعدها مدة بقاء مكة في المملكة الكاملية، وكان قد بلغني صعوبة ذلك وكنت حاملا همه، فلما دخلت من باب

بني شيبة ، ووقع نظري على البيت شرفه الله تعالى إذ الباب مفتوح والسلم منصوب و الناس طالعون إليه ونازلون من غير إزدحام فمن فرحي بذلك و خوفي من أنه لا يدوم عجلت في طواف القدوم ؛ و دخلت البيت عظمه الله تعالى ؛ و قضيت منه وطري اللائق بذلك الوقت ، و عندي من الشوق المبرح ما كفى ، ثم كررت الدخول إليه ليلا و نهارا فكنت أصادف فيه نحو العشرة و ما دونها . و من أعجب ما سمعت من بعض الحجاج أنه قال : دخلته ليلة فوجدت فيه إمرأتين قاعدتين تتحدثان كأنهما في بيت لهما قد أمنا ممن يزعجهما عن ذلك لا من سادن و لا من زحمة .

و اجتمعت في هذه السنة بالشيخ الحجة أبي طالب بن عبد المحسن ابن أبي العميد خالد بن عبد الغفار الحنفي، الأبهري ، و سمعت عليه و على غيره بالمسجد الحرام، و كان يقدم كل عام من بغداد على بعض سبلانات الخليفة ، ثم بلغني أنه تولى إمامة المقام بمكة و توفي بها رحمه الله، و اجتمعت بها أيضا بالشيخ المقرىء، عثمان بن أحمد بن يذال الإربلي الحنبلي و أنشدني بالمسجد الحرام:

أيا نائما في ظلام الدجى
تيقظ فصبح الدجى قد أضا
أتاك المشيب ولوعاته
وولى شبابك ثم انقضى
فلو كنت تذكر ما قد جنيت
لضاق عليك اتساع الفضا

ونظمت في طريقي في تلك السفرة قصيدة ميمية ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات، ووصفت بها ما أمكن من أماكن الزيارات أولها:

مازلت أشتاق حج البيت والحرم
وأن أزور رسول الله ذا الكرم

وهي طويلة أقول فيها تعبيرا عن فتح باب الكعبة للحجيج مطاعا

وشرعـــوانحـــوذاك البيـــت حـــاسرة
رؤوسهـــم بين مطـــواف و مستلـــم
و البـــاب اطلقـــوه للحجيـــج فلـــم
يـــروا بـــه مـــانعـــا طـــولى مقـــامهـــم

وفيهـا: توفي ببغـداد أحمد بن محمـد بـن علي القادسي الضريـر الحنبلي والد صاحب الذيل على تاريخ أبي الفرج بن الجوزي .

قال أبو المظفر : كان حنبليـا خشنا طلب الخليفة المستضيء من يصلي بـه التراويح في رمضـان فأحضروا القـادسي و قـالوا: إيـش مذهبـك ؟ قـال: حنبلي، قـالـوا: مـا يمكـن أن يصلي بـدار الخلافـة حنبلي، فقـال القادسي: أنا حنبلي و مـا أريد أن أصلي بكم . و سمعه الخليفـة فصاح صلي على مذهبك. قـال: و كان ملازما لمجالس جـدي و تراه هزه كثيرا، ويستحسن الكـلام، و كلما ذكر جـدي شيئا يصيـح: والله إن ذا مليـح، فبعـث إليه جـدي يستقـرض منه عشرة دنـانير فاعتـذر، و قـال ما هـي عندي، و صـار يحضر المجالس و لا يـرى هزه فسمعت جـدي يقول في داره: هـذا القـادسي مـا يقـرضنا شيئـا و لا يقـول واللـه إن ذا مليـح ، وكانت وفاته في شوال و دفن بباب حرب. (١١٠)

وفيهـا : توفي بـدمشق الشيـخ عبـد الرحمن اليمنـي في المحرم، و دفـن بمقابـر الصوفية و قد سبـق ذكرنا لـه في سنة عشرين متابعـة لأبي المظفر سبط ابن الجوزي ، و انما كانت وفاته سنة احدى وعشـرين

ثم دخلت

سنة اثنتين و عشرين و ستمائة

ففيها: في ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين إلى دقو قا ففتحها عنوة وأوقع السيف في أهلها، و نهب أموالهم ، و سبى حريمهم وهتك نساءهم و أحرق البلد و هدم سوره و كانوا قد عصوا عليه وسبوه من الأسوار ، و بالغوا في شتمه ، و عزم على قصد بغداد فانزعج الخليفة و أخرج المال وفرق في العساكر ألف ألف دينار ، و نصب المجانيق على الأسوار ، و فرق السلاح، و فتح الاهراء

قال أبو المظفر : حكى لي المعظم عيسى رحمه الله قال: كتب إليَّ يقول: تحضر أنت و من عاهدني و اتفق معي حتى نقصد الخليفة ، فإنه كان السبب في هلاك أبي و مجيء الكفار إلى البلاد، وجدنا كتبه إلى الخطا و تواقيعه لهم بالبلاد و الخيل و الخلع، قال المعظم : فكتبت إليه أنا معك على كل أحد إلا الخليفة فإنه إمام المسلمين ،

قال:و بينا هو على قصد بغداد ، و كان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه أدركنا فما لنا بالكرج طاقة ، و بغداد ما تفوت فسار إلى تفليس فخرج إليه الكرج فضرب معهم مصاف فقتل منهم سبعين ألفا و فتح تفليس عنوة، و قتل منهم سبعين ألفا فصار مائة ألف، وذلك في سلخ ذي الحجة.

وفيها: صلب المعظم في سوق الغنم العتيق في طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكي، رأس حزب ، و خلفه جماعة و رفيقا له منكسين على رؤوسهما ، و كانوا ينزلون على الناس في البساتين و يقتلون وينهبون و المعظم في الكرك ، و بلغه أن ابن الكعكي قال لأخي المعظم الصالح اسماعيل و كان صاحب بصرى : أنا آخذ لك دمشق ، فكتب

إلى والي دمشق بأن يصلب ابن الكعكي و رفيقه منكسين فصلبهما في العشر الأواخر من رمضان ، فأقاما أياما في حر الشمس يسفي الريح والتراب على وجوههما ورؤوسهما و لا يقدران على طعام ولا شراب إلى أن ماتا ، مات ابن الكعكي أولا و كان يستغيث كثيرا و يقلق ، و كان رفيقه أجلد منه و أصبر ، و كان رجلا خياطا ادم اللون، و قيل أنه كان بريئا مما رمي به فمات بعد ابن الكعكي بيوم أو نحوه ، و كان ابن الكعكي من المترفين ذوي الثروة له أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية وغير ذلك .

قال أبو المظفر : و قدم المعظم دمشق بعد ما ماتا فمرض مرضا عظيما اشفى منه، ثم أبل و لم يزل ينتقض عليه حتى مات

و فيها حج بالناس من العراق ابن أبي فراس و من الشام الشجاع علي بن السلار (١١١)

و فيها: حججت أيضا راكبا في المحمل السلطاني المعظمي ، و كان أيضا حجا مباركا كثير الخير و الأمن في الطريق و الحرمين و باب الكعبة مفتوح للحاج مدة مقامهم ليلا و نهارا، و خرجت يوم التروية و بت أنا ورفيقي الشهاب غازي الناسخ الفقيه رحمه الله ليلة يوم عرفة بمسجد الخيف بمنى؛ ثم أصبحنا وتوجهنا حين طلعت الشمس إلى نحو عرفات فمررنا على تلك الآبار بمنى و المزدلفة ، و حدود الحرم و حدود عرفة والمسجد الذي بعضه من أرض عرفة وبعضه ليس من ارض عرفة، ثم توجهنا إلى الموقف شرفه الله تعالى فنحن بعرفاتو قد جاءنا الخبر مع حاج العراق ، بوفاة الخليفة الناصر أحمد بن المستضى ، في أواخر شهر رمضان ، و أقام في الخلافة ما لم يقم أحد من أهل بيته سبعا وأربعين سنة إلا قليلا ، و تولى بعده ولده ولي عهده أبو نصر محمد و لقب بالظاهر بأمر الله ، فأظهر العدل، وأحسن السيرة، ثم لم تطل مدته

فمات بعد تسعة أشهر كما سيأتي ذكره ، و لما دخلنا مكة لطواف الافاضة و قد ألبست الكعبة الكسوة السوداء التي يرسلها الخليفة الذي نسجت في أيامه فتأملت الطراز ، فوجدت فيه اسم الناصر في جانبين من جوانب الكعبة الأربعة ، و في الجانبيين الآخرين اسم الظاهر فعلمت أنهم كانوا قد فرغوا من نسج الجانبيين عند وفاة الناصر ، ثم استأنفوا ما بقي باسم الظاهر و نظمت في هذه السنة أيضا قصيدة على قافية الهمزة وصفت فيها أمير الحج و منازل الطريق التبوكية أيضا أولها :

يا حبذا وطن الحبيب النائي

قال أبو المظفر : مولد الناصر عاشر رجب سنة ثلاث و خمسين وخمسمائة،و بويع بالخلافة غرة ذي القعدة سنة خمس وسبعين و خمسمائة، وكان له خادم اسمه رشيق قد استولى على الخلافة و أقام مدة يوقع عن الخليفة ، و كان قد قل بصره وقيل ذهب جملة ، و كانت به أمراض مختلفة منها عسر البول . و الحصاة و لقي منه شدة ، و شق ذكره مرارا، وما زال يعتريه حتى قتله . و غسله خالي أبو محمد يوسف وكان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة فحمل في تابوت و دفنَ عند أهله، و كان قد خطب للظاهر بولاية العهد في سنة خمس و ثمانين و خمسمائة ، و عمره إذ ذاك أربع عشرة سنة لأن مولده في المحرم سنة سبعين و خمسمائة، ثم عزل عن العهد في سنة احدى و ستمائة ، ثم اعيد إلى العهد في سنة ثماني عشرة وستمائة ، ولما مات أبوه استدعى الأعيان إلى البدرية ، فشاهدوا الناصر ميتا مسجى فبايعوا أبا نصر وَلقبوه بالظاهر ، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة ، حلو الشمائل شديد القوة، أفضت الخلافةإليه وله اثنتان وخمسون سنة إلا شهورا ، فقيل لهألا تستفتح ؟ فقال: قد فات الزرع، فقيل له يبارك الله في عمرك . فقال: من فتح دكانا بعد العصر ايش يكسب ، و لما بويع أحسن إلى الناس و لم يؤاخذ أحدا بمن سعى في

خلعه، فقابل الاساءة بالاحسان و صلى على أبيه بالتاج و فرق الأموال وأبطل المكوس و أزال المظالم (١١٢).

وفيها: توفي الملك الأفضل علي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب الذي كان ولي عهد أبيه و مملكته دمشق و أعمالها ، و الأرض المقدسة وأعمالها . و مولده بمصر سنة خمس وستين و خمسمائة . و كان فاضلا شاعرا حسن الخط تقلبت به الأحوال إلى أن ألقاه الدهر في سمسياط، وبها توفي في ربيع الأول ، و نقل إلى حلب فدفن بظاهرها.

و فيها : توفي بحلب في أواخر جمادى الأولى الأمير سيف الدين علي ابن علم الدين سليمان بن جندر، و كان من أكابر أمراء حلب ؛ كثير الخير و الصدقات الدارة، و البر الوافر ، و بنى بحلب مدرستين احداهما:لأصحاب أبي حنيفة بظاهر حلب . و الأخرى للشافعية داخل حلب. ووقف عليها الأوقاف ، و بنى الخانات في الطرقات ، وله الغزوات المشهورة ، و المواقف المذكورة، رحمه الله

و فيها توفي علي الكردي المولد، الذي كان مقيما ظاهر باب الجابية بدمشق ، و اختلفوا فيه فبعض الدماشقة يزعم أنه كان صاحب كرامات، وانكر ذلك آخرون وقالوا : ما رآه أحد يصلي، ولا يصوم، ولايلبس مداسا ، بل كان يدوس النجاسات ، و يدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه

قال أبو المظفر : و حكت لي امرأة صادقة قالت: ماتت أمي باللاذقية، و لم أصدق و جاء قوم فقالوا : ماتت، و جاء آخرون فقالوا : ما ماتت، قالت : فخرجت إلى باب الجابية و هو قاعد عند المقابر فوقفت عنده فرفع رأسه و قال : ماتت، ماتت : إيش تعملين، و كان كما قال.

و حكى لي عبد الله صاحبي قال: جعت يوما و ما كان معي شيئا فاجتمعت به فدفع لي نصف درهم و قال: يكفي هذا للسعتر بس

قال: و دخل يوما على جمال الدين الدولعي خطيب دمشق المقصورة، و كان يغشاه، فقال له: يا شيخ علي قد أكلت اليوم كسيرات يابسة وشربت عليها الماء فكفتني . فقال له و ما تطلب نفسك شيئا آخر ؟ قال: لا، ، قال: يا مسكين من يقنع بكسرة يابسة يحبس نفسه في هذه المقصورة و لا يقضي ما فرضه الله عليه من الحج.(١١٣)

وفيها توفي خطيب حران الفخر بن تيمية و هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن محمد الحراني فقيه حران بها ولد ، و قدم بغداد و تفقه بها على أبي الفتح بن المنى . و وعظ في رباط محمود النعال، و سمع الحديث الكثير ببغداد على شيوخ ذلك العصر ، و صنف الخطب والتفسير و غير ذلك ، و كان فاضلا فصيحا سمع شهدة ، و ابن المقرب، وابن البطي وغيرهم.

قال أبو المظفر: و كان خطيبا بحران حتى إذا نبغ فيها أحد لا يزال وراءه حتى يخرجه منها و يبعده عنها ، و مات في خامس صفر ، وسمعته ينشد في جامع حران يوم الجمعة بعد الصلاة على المنبر:

أأحبابنا قد نذرت مقلتي
ما نلتقي باليوم أو نلتقي
رفقا بقلب مغرم واعطفوا
على سقام الجسد المعرق
كم تمطلونى بليالي اللقا
قد ذهب العمر و ما نلتقي(١١٤)

وفيها : توفي عبد المنعم بن علي بن عبد الغني القرشي الصقلي، كان رجلا صالحا خيرا، و كان مقرئا حسنا قد قرأ على تاج الدين الكندي ،

وعلم الدين السخاوي و غيرهما ، و كان الشيخ فخر الدين بن عساكر كثيرا ما يطلبه ليصلي به من عقيدته في صلاحه، و كان قد حج معي في سنة إحدى و عشرين، فلما رجع إلى دمشق توفي عقيب قدومه من الحج ، و دفن بجبل قاسيون، وهو : أخو الزين الضرير، كان أخوه على غير طريقته مشتغلا بعلوم الأوائل

و فيها : في شعبان توفي بمصر الوزير صفي الدين عبد الله بن عبد الخالق بن شكر، أبو محمد ، و مولده بالدميرة بين مصر والاسكندرية في سنة أربعين و خمسمائة ، و دفن بتربته التي أنشأها جوار مدرسته بالقاهرة، حكى عنه القوصي في معجمه ، و قد سبق من أخباره في حوادث سنة خمس عشرة و ستمائة ، و هي سنة نكبته بعد وزارته ، و له بدمشق آثار حسنة منها : بناء مصلى العيدين ، و تبليط الجامع، و عمارة مسجد الفوارة. و تجديد مسجد حرستا، و جامع المزة و غير ذلك، وبلغني أنه قال : أنشدنا الحافظ السلفي لنفسه:

مهما تهاود في أمري امرؤ و غدا
مصارما لا أرى إلا مبجله
و إن أساء مسيء فوق طاقته
أحسنت مجتهدا حتى أخجله

و قال: أنشدنا الحافظ السلفي لابن رشيق و قد قيل له: لم لا تركب البحر للحج؟ فقال معتذرا:

البحر صعب المرام هولا
لا جعلت حاجتي اليه
أليس ماء ونحن طين
فهل ترى صبرنا عليه

و لعبد الجبار الكاتب:

لا أركب البحر خوفا
عليه من المعاطب
طين أنا وهو ماء
والطين في الماء ذائب

و لأبي الفتح البستي :

ان ابن آدم طين
والبحر ماء يذيبه
لولا الذي فيه يتلى
ما جاز عندي ركوبه

و له أيضا :

وأخضر لولا آية ما ركبته
وللّه تصريف القضاء بما شاء
أقول حذار من ركوب عبابه
أيا رب إن الطين قد ركب الماء(١١٥)

ثم دخلت

سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

ففيها : قدم من بغداد محيي الدين يوسف بن الجوزي رسولا إلى المعظم ، و معه الخلع لأولاد العادل من عند الخليفة الظاهر، ومضمون رسالته طلب رجوع المعظم عن موالاة الخوارزمي.

قال أبو المظفر: وحكى لي المعظم صورة الرسالة، قال: قال لي خالك: المصلحة رجوعك عن هذا الخارجي إلى أخوتك ، و نصلح بينك وبين أخوتك - و المعظم قد بعث مملوكه الركين إلى الخوارزمي فرحله من تفليس فأنزله على خلاط و الأشرف بحران- قال: فقلت لخالك : إذا رجعت عن الخوارزمي و قصدني أخوتي تنجدوني؟ قال : نعم، قلت : ما لكم عادة تنجدون أحدا، هذه كتب الخليفة الناصر عندنا، و نحن على دمياط ، و نحن نكتب نستصرخ به و نقول : أنجدنا ، فيجيء الجواب بأن قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة ولم يفعلوا ، و قد اتفق أخوتي علي و قد أنزلت الخوارزمي على خلاط إن قصدني الأشرف منعه الخوارزمي ، و إن قصدني الكامل كان في له .(١١٦) .

و فيها: قدم الأشرف دمشق و أطاع المعظم ، و سأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خلاط ، وقال: نحن مماليكك و ما أنبت الشعر على رؤوسنا إلا أنت ، فبعث المعظم فرحل الخوارزمي عن خلاط، وكان قد أقام عليها أربعين يوما ، و نزل الثلج و أقام الأشرف عند المعظم بدمشق. و كان المعظم يلبس خلعة الخوارزمي و يركب فرسه وإذا جلسوا على تلك الحال يحلف المعظم برأس خوارزم شاه، و عند الأشرف من هذا المقعد المقيم و هو ساكت .

قال : و توجه خالي إلى مصر إلى الكامل، و هذه أول سفرة سافرها خالي إلى الشام و مصر

قال: و فيها: حج بالناس من العراق ابن أبي فراس ، و من الشام علي بن السلار.

وفيها: فوض المعظم تدريس مدرسة شبل الدولة بقاسيون إليّ، وقلت . و في يوم جلوسي للتدريس بها توفي شمس الدين محمد ابن شيخنا علم الدين السخاوي رحمه الله بدمشق و دفن بالجبل.

و فيها: في آخر ربيع الأول توفي قاضي قضاتها جمال الدين يونس بن بدران بن فيروز المصري ، و دفن بداره بدرب الريحان، و كان فقيها كثير الاشتغال، و اختصر كتاب « الأم» للشافعي رحمه الله ، و صنف فرائض كثيرة تحتوي على مسائل كثيرة و كان قد اعتنى به الوزير صفي الدين بن شكر فجعله وكيل بيت المال ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة الأمينية بعد تقي الدين الضرير ، ثم صار يترسل عن العادل إلى الخليفة و إلى الملوك بالروم ، و بلاد الشرق و حلب و غيرها ، ثم ولاه المعظم بعد الزكي الطاهر قضاء قضاة الشام ، و فوض إليه التدريس بالمدرسة العادلية، فهو أول من ذكر قبل الدرس ، و كان يذكر بها، قبل درس الفقه درسا من تفسير القرآن طويلا و يجري فيه مباحث حسنة، فإنه كان يحضره معنا جماعة من الفضلاء ، فاتفق أن فرغ من ذكر التفسير من أول القرآن إلى آخره ، فلما تم له ذلك توفي بعد ذلك بقليل رحمه الله ، وكان في ولايته عفيفا في نفسه نزها ملازما لمجالس الحكم بالشباك الكمالي بالجامع و غيره ، و كان إذا جلس فيه بعد العصر لا يزال إلى أن يصلي المغرب ، و في بعض الليالي يصلي العشاء الآخرة فكان إذا فرغ من الحكم بين الخصوم تجري بحضرته المذاكرة في العلم إلى حين انفصاله، ويجلس بكرة كل يوم جمعة و يوم ثلاثاء بإيوان المدرسة العادلية لاثبات

الكتب. و يصطف شهود البلد في جوانب الإيوان. وكان مجلسا عليه جلاله ، و لم يكن يضيع فيه الزمان في غير ما هو بصدده بل هو ملازم لما ذكرنا من الأيام كلها السبت و غيره، و لم ينقم عليه شيء في ولايته سوى أنه إذا ثبت عنده وراثة شخص لما وضع نواب بيت المال أيديهم عليه يأمره بمصالحة بيت المال فيقتطع منه قطعة لبيت المال، وأما لنفسه فلم يشتهر عنه شيء من ذلك ، و نقم عليه أيضا استنابته لولده التاج محمد، و لم تكن طريقته مستقيمة ، وكان يذكر أنه قرشي فتكلم الناس في ذلك، و تولى القضاء بعده شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي والمدرسة العادلية و الله أعلم.

قلت: و شمس الدين الخوئي هو أبو العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، باشر الحكم بدمشق يوم الأحد سادس شهر ربيع الأول سنة ثلاث و عشرين و ستمائة

نقلت من خط بعض من له عناية بجمع التاريخ أن جمال الدين المصري المذكور باشر الحكم مع بقية النواب لما انفصل الزكي المذكور، ثم استقل بالحكم في يوم الثلاثاء ثامن عشري رجب سنة تسع عشرة وستمائة.

و فيها : في شهر رجب أو شعبان توفي الشيخ تقي الدين خزعل ابن عسكر بن خليل الثنائي المصري النحوي، و دفن بباب الصغير وكان رحمه الله شيخا حسنا فاضلا مفتيا متواضعا، قاضي الحاجة لكل من يقصده ، أقام بالقدس الشريف زمانا، يقرىء الناس به حتى كان يعرف بنحوي القدس ، ثم قدم دمشق سنة خرب القدس المعظم و هي سنة خمس عشرة فأعطي إمامة مشهد علي بن الحسين رضي الله عنهما بالجامع، و أنزل في المدرسة العزيزية ، فكان يقرىء بها و يتولى عقود الأنكحة ، و كنت إذ ذاك ساكنا بالمدرسة، و أتردد إليه فقرأت عليه

عروض الناصح بن الدهـان الموصلي ، أخبرني عن مصنفه، و قرأت أيضا عليه جدل الكمال الأنباري . و أخبرني به أيضـا عن مصنفه . و أنشدني لنفسه ميمية في حصر أقسام الواو و غير ذلـك ، و كان يحثني على حفظ الحديث و التفقـه فيه خصوصا صحيـح مسلم ، و يقول: إنه أسهـل من حفظ كتـب الفقه و أنفـع وأصدق، رحمه اللـه ، و حث على مسـح جميع الرأس في الـوضوء احتيـاطا ، و بحـث في دليله فـأعجبني ، و استقـر في نفسي فما أعلم أني تـركته مـن ذلك الـزمان إلى الآن و اللـه المستعان فيما بقي لنا من الزمان ، و كنت أرى منه مـروءة تامة في توليه عقود الأنكحة و في فسخها و في فعلـه فيما يحصل منهـا، فكان إذا غلـب على ظنه فقـر أهل الواقعة لا يأخذ منهم شيئا ، و أما عند الطلاق و الفراق فلا يأخذ شيئا أصلا سواء كـانوا فقراء أو أغنياء، و كان مما يتحصـل له من ذلك يتصدق بجملـة منه فلا يـرد سائلا ، و ربما جـاءه من يطلب منـه شيئا فيقول اقعد فما يـأتي فهو لك ، فأول شغل يـأتيه يعطي ذلك القـاصد ما يحصل منه كـائنا ما كان، ومن مـروءته أنه فوض إليـه المسجد الذي قبلي قيساريـة الفرش و كـان لصاحبنـا شمس الـدين محمـد بن عبـد الجليل واتفق انه فارقـه و سافر عنه متزهدا إلى العراق، ثم اتفـق رجوعه ، فنزل له عن المسجد ورده إليه فاستحسن ذلك منه

و فيها: توفي في رجب زكي الدين أبو القـاسم هبة الله ، المعروف بابن رواحة مـن أكابـر العدول و التجـار أولي الثروة ، و بنـى بحلب مـدرسة للشافعيـة ، و بدمشق مثلهـا داخل باب الفـراديس، وقف عليهما أوقـافا حسنة و قنع بعد ذلك باليسير ، و كان يدرس في بيت المدرسة الدمشقية و هو الـذي في ايوانها مـن الشرق ، و يقابلـه من الغـرب خزانـة الكتب التي وقفهـا ، و هي كتـب جليلة ، و كـان رحمه الله تـام الخلقة طـويلا وعريضا، إلا أنه كان لا لحية له أصلا، و كان مبجلا عند القضاة ، وكان قد أسند النظر الـذي في مدرسته التي بدمشق إلى الشيخ تقـي الدين بن الصلاح، ثـم أنه بعـد موته شهـد عليه بـالعزل له الشيخـان تقي الـدين

خزعل المقدم ذكره ومحيي الدين محمد العربي ، و كانا ساكنين قريبا من المدرسة ، فزعما أنه استدعى بهما ليلا و أشهدهما عليه بعزل ابن الصلاح عن نظر المدرسة ، و جرت في ذلك فصول لا حاجة إلى ذكرها، و كأنه كان قد ألهمه الله تعالى المصلحة في ذلك فان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له ، فغلب على وقف المدرسة و تدريسها بغير أهلية و لا استحقاق، و لا أمانة ، و لا عدل، ولا إشفاق، و الأمر على ذلك إلى الآن والله المستعان، و دفن الزكي بن رواحة بمقابر الصوفية.

و فيها توفي في رجب أيضا الخليفة الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، ولي تسعة أشهر و أيام ، قام فيها بالعدل حسب طاقته، وغسله محمد الخياط الشاعر

قال أبو المظفر: و حكي لي أنه دخل يوما إلى الخزائن فقال له خادم: في أيامك تمتلىء ، فقال له : ما جعلت الخزائن لتمتلىء بل لتفرغ و تنفق في سبيل الله فإن الجمع شغل التجار ، وولى بعده ابنه ابو جعفر منصور بن محمد و لقبه المستنصر بالله فبنى المدرسة المستنصرية ببغداد للمذاهب الأربعة ، و توفي سنة أربعين، و سيأتي ذكره(١١٧) .

و فيها : في رجب أيضا توفي شيل الدولة كافور الحسامي ، نسب إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، ولد ست الشام بنت أيوب ، كان خادما، عاقلا ، دينا ، صالحا، مهيباً له حرمة وافرة في الدولة و منزلة عالية عند الملوك ، اعتمدت عليه سيدته ست الشام في بناء تربتها، ومدرستها الشافعية بمنحلة العوينة، و كان حنفي المذهب فبنى مدرسة لأصحاب أبي حنيفة عند جسر كحيل في طريق الجبل ، ولصقها تربته والخانقاة ، ووقف عليها أوقافا جليلة ، و بنى المصنع قبالة ذلك والقناة و الساباط المظلل للطريق ، و المصنع الآخر الذي برأس الزقاق الطويل

و فتح للناس طريقا للجبل من عند المقبرة التي غرب المدرسة الشامية تفضى إلى عين الكرش، و لم يكن إليها طريق قبل ذلك إلاَّ من جهة مسجد الصفي المجاور لمقبرة باب الفراديس، و له صدقات دارة، وإحسان كثير ، و دفن بتربته إلى جانب مدرسته المذكورة. و كان قد سمع الحديث على الشيخ تاج الدين الكندي و غيره رحمه الله.

و فيها: توفي المبارك ابراهيم بن موسى المعروف بالمعتمد والي دمشق، ولد بالموصل ، و قدم الشام فخدم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب وتقلبت به الأحوال و استنابه أخو فرخشاه لأمه بدر الدين مودود الشحنة بدمشق ، ثم ولاه العادل الشحنكية استقلالا فأحسن السياسة، و لطف بالرعية ، و كان بين يديه نقيب له يعرف بسويد من أحذق الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية ، و كان المعتمد دينا، ورعا ، عفيفا، نزها، اصطنع عالما عظيما من النساء و الرجال ، و ستر عليهم كبائر الأحوال ؛ و كانت دمشق و أعمالها في أيام ولايته لها حرمة ظاهرة وهي حسنة.

قال أبو المظفر : و مما جرى له أنه كان في دمشق رجل فاتك و إلى جانب بيته قوم لهم ولد صغير في أذانه حلق من ذهب ، فاغتاله الرجل يوما فخنقه و أخذ الحلق من أذنه ، و أخرجه في قفة و دفنه في باب الصغير . و فقدته أمه فاتهمت الرجل به فعذبه المبارز عذابا أليما فلم يقر و أطلق ، و في قلب المرأة النار من ولدها، فطلقت زوجها وتزوجت الرجل القاتل و أقامت معه مدة ، فقالت له يوما و هي تداعبه: قد مضى الابن و أبوه و كان منهما ما كان ، - و كان الزوج قد مات- أنت قتلت الصغير ؟ فقال: نعم و أخذته و دفنته في الباب الصغير ، فقالت: قم فأرني قبره ، فأخذها و خرج بها إلى المقابر و حفر القبر فرأت ولدها فلم تتمالك و ضربت القاتل بسكين أعدتها له فشقت بطنه و دفعته فألقته في القبر و جاءت إلى المبارز فحكت له الحكاية ، فقام و خرج

معهـا إلى القبر فكشفته لـه . فقـال: أحسنت والله ينبغـي لنا كلنـا أن نشرب لك فتوة .

قال: وحكى لما حـرم العادل الخمور ركبت يـوما وخرجت مـن باب الفـرج ، و إذا برجـل في رقبته طبـل و هـو يتمايل تحتـه، فقلت امسكـوه وشقوا الطبـل فشقوه، و إذا فيـه ركوة خمر فبـددتها و ضربته الحد، قـال: فقلت له من أين علمت ؟ قال: رأيت رجليه و هيّ تلعب ، فعلمت أنه قد حمل شيئا ثقيلا .

قال: و كان لداره بابان : الباب الكبير عليه الغلمان و البواب ؛ وباب السر في زقـاق آخر ، فكـان النواب إذا مسكـوا في الليل امـرأة من بيـت معروف و حملوها إليـه على حالها يقول لهم: انزلوا حتى أقـررها ، ثم يقول لها: يا بنتي انـت من بيت كبير و أهلك رجال معروفـون فما الذي حملك على هـذا ؟ فتقول : يـا سيدي قضـاء الله فيقـول لها :ستر الله عليـك . ويبعث معهـا الخادم من بـاب السر إلى بيتها ، فأقـام على هذا نحـواً من أربعين سنة.

قال: وكان في قلـب المعظم له شحناء لأنه كان يشفـق عليه و يحفظه في أماكـن يدخـل إليها بـدمشق في الليـل و هو شـاب فيأمـر غلمانه أن يتبعوه من بعيـد ، و كان العادل من مصر يكتب إليه بـذلك ، فلما مات العادل أظهـر ما كان في قلبـه منه ، فاعتقلـه مدة في القلعة ، فلـم يظهر عليه و على أحـد من أولاده و حـاشيته أنـه أخذ مـن الرعيـة ما مقـداره مثقال حبـة من خـردل ، و لا غير ما كـان عليه مـن العفة ، و الأمـانة، والصلاح ، والـديانـة. ثم أنـزله مـن القلعة إلى داره و حجـر عليه فيهـا، وبالـغ في التشديد عليـه ، وكانت وفـاته يوم السبـت الحادي و العشرين مـن ذي القعدة ، و عمـره نحو ثمانين سنـة ، و دفن بجبـل قاسيـون في التربة التي أنشأها في الجبل.

قال: و حكي لي أنه ولي دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين، ثم اشتغل بالولاية إلى أن عزل في سنة سبع عشرة وستمائة ، و كانت ولايته نيابة و استقلالا قريبا من خمسين سنة.

قالوا: و لم يؤخذ على المبارز شيء إلا أنه كان يحبس و ينسى، فعوقب بمثل ذلك ، و أقام محبوسا خمس سنين إلا أياما.

قال:و جرت لي معه واقعة عجيبة كنت في كل ليلة جمعة أزوره وانقطعت عنه مدة بسبب إغلاق باب داره في بعض الأوقات، فرأيت في المنام كأن قبره في روضة خضراء و القبر معمول بالفص الأخضر، وليس هو من جنس فصوص الدنيا فطربت لحسنه ورونق المكان ، فهتف بي هاتف: لو رأيت ما في باطن القبر، قلت: و ما في باطنه؟ قال: الدر، والياقوت، والمرجان، و ما يستغنى عن قراءة كتاب الله .

فانتبهت وفهمت الإشارة ، فأنا في كل ليلة أقرأ ما تيسر من القرآن وأهديه إليه و إلى أهلي و أصحابي و معارفي رحمهم الله (١١٨) .

و فيها: توفي البدر الجعبري، والي قلعة دمشق و أقام واليها مدة في أيام المعظم ، و خدم الظاهر بحلب و غيره، و حمل إلى نابلس فدفن عند أهله

ثم دخلت

سنة أربع و عشرين و ستمائة

ففيها :قدم رسول الانبروز ملك الفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل ، يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين رحمه الله ، فأغلظ له و قال: قل لصاحبك ما أنا مثل العزيز ما له عندي إلاّ السيف

و فيها: في آخر شعبان سافرت أنا إلى بيت المقدس صحبة الفقيه عز الدين بن عبد السلام و غيره على سبيل الزيارة للأقصى و الخليل و ما بتلك الديار من الآثار ، و رجعنا إلى دمشق بعد أربعة عشر يوما .

و فيها : حج بالناس من الشام الشجاع بن السلار و هي آخر إمرته على الحاج، و آخر السنين التي كان الحج فيها رضيا طيبا ، و انقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف و الفتن.

و فيها: حج من ميافارقين سلطانها شهاب الدين غازي بن العادل.

قال أبو المظفر : و كان ثقله على ستمائة جمل، و معه خمسون هجينا على كل هجين مملوك ، و جهزه الأشرف جهازا عظيما ، و سار غربي الفرات ، على قرقيسيا، و الرحبة ، و عانة ، و الكبيسات، و المعمر، والعين ، و شفاتا ، و كلها قرى فيها عيون جارية و نخل كثير ، و منها يجلب التمر إلى الشام ، و عبر كربلاء فزار المشهد، ثم الكوفة و زار مشهدأمير المؤمنين . و حج بالناس من العراق شمس قيران مملوك الخليفة وبعث الخليفة لشهاب الدين فرسين و بغلة و ألفى دينار ، وقال: هذه من ملكي أنفقها في طريق الحج ، و أوصى أمير الحاج بخدمته، وتصدق في مكة و المدينة ، و عاد إلى العراق ، و لم يصل الكوفة بل

سار غربي الطريق التي سلكها ، و كاد يهلك هو و من معه عطشا حتى وصل إلى حران.(١١٩).

و فيها: توفي بدمشق سلطانها الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، ملك الشام بعد أبيه من العريش إلى حمص ، و ما بين الأرض المقدسة و مدينة النبي صلى الله عليه و سلم من الكرك، و الشوبك، والعلا، و كان قد سير في سنة اثنتين و عشرين و ستمائة ، و هي السنة التي حججت فيها ثانيا من مسح الأرض من باب الجابية إلى جبل عرفات، و كتبها له منزلة منزلة، و سهل في طريق الحاج مواضع كانت وعرة كثيبة الصوان ، و كثر المير لهم في أراضي الكرك ، و الشوبك وتبوك ،و العلا، و المدينة على ساكنها السلام ، و كان الحجاج يجدون بذلك رفقا عظيما، و بالجملة تفرد من بين الملوك بالجمع بين مواظبة الغزو والاشتغال بأنواع العلوم، و الحج إلى الحرمين بنفسه ، و إعانة غيره عليه و كان عديم الالتفاف إلى ما يرغب فيه الملوك من الأبهة والتعظيم والمدح و غير ذلك ، فكان ينهى نوابه على إمرة الحاج الشامي من مزاحمة الملوك في إطلاع الأعلام إلى رأس جبل عرفات ، فكنت ترى علمه مركوزا إلى جانب محمله تحت الجبل، و كان يركب وحده مرارا كثيرة ، ثم يتبعه من شاء من غلمانه طاردين خلفه ، و كان إذا كان بدمشق يأتي كل جمعة في الساعة الرابعة أو نحوها إلى تربة والده قبالة دار العقيقي يجلس فيها هو ومن معه من إمرائه و خواصه إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الجمعة فيخرج حينئذ ماشيا إلى تربة عمه صلاح الدين رحمه الله المجارة للكلاسة فيصلي الجمعة بها مع الناس ، أقام على ذلك زمانا ، و كان جميل الصحبة مكرما لأصحابه ، منصفا لهم ، كأنه واحد منهم ، أنشدني المحب بن أبي السعود البغدادي الحجازي، وكان من الملازمين خدمته قال: نظمت فيه لما توفي رحمه الله تعالى:

لئن غودرت تلك المحاسن في الثرى
بوال فما وجدي عليك ببال

ومـــذغبـــت عنـــي مـــا ظفـــرت بصـــاحـــب
أخـــــي ثقـــــة إلاّ خطـــــرت ببـــــالي

ثم دخلت

سنة خمس و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بالله

ففي ثامن عشر صفر جاء منشور الولاية لداود من عمه الكامل محمد ابن أبي بكر ، و كانت الفرنج لعنهم الله و خذلهم قد تحركوا و انبثوا ببلاد الساحل ، لأن الهدنة كانت قد تمت، وبقي المسلمون منهم في خوف ، فرأيت في المنام ليلة الثلاثاء تاسع صفر كأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد جاء للنصرة و عليه برد يمان وفرجية مفتوحة، و قال: سنأمر من ينادي بالرحيل إلى الساحل، ووعد بأن يستخلف على الشام إذا عاد رجلا شريفاً شجاعا، فاستبشر الناس لهذه الرؤويا ، فلما كان أوآخر ربيع، وذلك في أيام عيدهم الذي بعد صيامهم أغار المسلمون على بلاد صور، فغنموا غنيمة كبيرة من إبل، و بقر، وغنم مقدار ستة آلاف رأس وغير ذلك ، و خرج إليهم من الفرنج نحو مائتين ، فكانوا بين قتيل و أسير و غريق في البحر، و ما نجا إلاّ القليل، و من جملة الأسرى ابن والي صور، و قيل الوالي، و قيل خلصه المركب ، و خبرت أن بعد الوقعة خرج جماعة من الكفار لأخذ قتلاهم فأخذوا .

و في هذه السنة نزل العزيز عثمان بن أبي بكر بن أيوب على بعلبك ليأخذها ، و فيها ابن عمه الأمجد بهرامشاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، فأعان الناصر داوود الأمجد على العزيز ، و أمره بالرحيل عنها ، فرحل واشتد حنقه على الناصر .

قالوا: و كاتب العزيز الكامل و حثه على الإتيان إلى بلد دمشق

ليتسلمه ، و أوهمه أنه في يده ، فجاء الكامل و انضاف إليه العزيز، وجاءهم صاحب حمص المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادي ، و قد كانت له بمحاصرة والده ضغينة على عيسى ابن أبي بكر ، لأنه كان نازل بلده حمص و خرب ما حولها و نهبه، فأراد استيفاء ما جرى على بلده بمحاصرة ولده ، فحسن ذلك في رأي الكامل، واستنجد الناصر بعمه الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر ، فجاءه و أكرمه غاية الأكرام ، و ذلك في أواخر رمضان ، ثم دخل الأشرف إلى الكامل و اجتمع به بالقدس فاتفقا على أخذ البلاد من داوود بن عيسى، و أن دمشق تكون للأشرف وانضاف إليهما من عسكر الناصر عمه الصالح اسماعيل بن أبي بكر ، و ابن عمه شهاب الدين محمود بن المغيث عمر بن أبي بكر بن أيوب، و جماعة من الأمراء مثل عز الدين أيدمر ، و الكريم الخلاطي و غيرهما ، و جاء أخو الأشرف إلى المظفر شهاب الدين غازي بن أبي بكر و اجتمع الجميع بأرض فلسطين ، و قد كان الناصر خرج لأجل عمه الكامل و خدمته، وظن أن الأشرف عنده قد أصلح أمره، فوصل إلى الغور ، و سمع باجتماع أعمامه عليه وأنهم عازمون على القبض عليه، فرجع إلى دمشق وأخذ في الاستعداد خوف الحصار، و سنذكر ما جرى من ذلك في سنة ست وعشرين.

و في هذه السنة في المحرم توفي جمال الدين عبد الرحيم بن علي بن شيث بن اسحق الكاتب بدمشق ، ولد بأسنا من أعمال قوص سنة سبع و خمسين و خمسمائة ، و نشأ بقوص ، و تأدب فيها بفنون العلوم ، كان دينا حسن النثر و النظم، وتولى الديوان ببلاد قوص ، ثم بالاسكندرية، ثم ببيت المقدس ، ثم بكتابة الانشاء للملك المعظم عيسى ، حكى عنه القوصي في معجمه.

و في هذه السنة توفي الشيخ الصوفي هندولا في السابع و العشرين

من أحد شهري ربيع ، و دفن بمقابر الصوفية ، و في أواخر جمادى الأولى توفي الشمس أحمد بن القواص ، و الشريف البهاء كاتب الحكم ودفنا بالجبل، و في أوائل رجب توفي الشيخ الفقيه الصالح أبو الحسن علي المراكشي المقيم بمدرسة المالكية ، و دفن بالمقبرة التي وقفها الرئيس خليل بن زويزان قبلي مقابر الصوفية، و كان أول من دفن بها، وفي سادس عشر رجب توفي المحب اللبلي المعروف بالمغربي، و دفن بمقبرة ابن زويزان أيضا، و في سادس عشر رمضان توفي الفقيه ضياء الدين ابن عبد الكافي ، و دفن بالجبل ، و في يوم عيد الفطر توفي التقي أبو عبد الله المغربي الجابري و دفن في مقبرة ابن زويزان، و قد كان معنا في المدرسة . و في مستهل ذي القعدة توفي القابسي عبد الرحيم ، الذي كان يحفظ الوجيز و دفن بالجبل. وفي سادس عشر ذي الحجة توفي الجمال ابن القفصي المعروف ، و دفن بالجبل.

وفي هذه السنة توفي الفقيه عبد المحسن الحنبلي ، و موسى الموصلي بمصر ، و معرفتنا شهوان السواق في الدقيق بدمشق، وخلق كثير غيرهم رحمهم الله.

و فيها: في صفر عزل الصدر بن البكري عن مشيخة الشيوخ بدمشق، ووليها العماد بن صدر الدين شيخ الشيوخ ، و في سادس رمضان عزل ابن البكري عن الحسبة أيضا ، ووليها الرشيد بن عبد الهادي ،

و فيها: في شعبان توفي الأمين نفيس الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن الحسن بن الحسن بن محمد الأسدي المعروف بابن اللين، حكى عن جده الحسن و غيره .

ولم يدخل ركب الحجاز في هذه السنة من طريق الشام .

- ٩٢٧٤ -

و فيها : قدم قاضي البلقاء عبد الحق المالكي في أول رمضان واجتمعت به.

ثم دخلت

سنة ست و عشرين و ستمائة

في دولة المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و سلطان دمشق داوود بن عيسى.

ففي أواخر المحرم منها مات الشيخ شمس الدين الحسين بن هبة الله ابن محفوظ بن الحسن بن محمد بن صصرى التغلبي، و كان له روايات كثيرة و عمر وأجاز لي جميع ما يرويه و لم أسمع منه شيئا .

و فيها: في أواخر صفر عزل القاضي نجم الدين أحمد بن محمد بن خلف المقدسي ، و كان نائبا و تولى استقلالا مشاركا لشمس الدين الخوئي ، و تولى القاضي محيي الدين أبو الفضائل يحيى بن محمد بن يحيى القرشي، و جلس بالكلاسة في الشباك الذي يلي المحراب الشرقي منها اماماً .

قلت: كان ذلك يوم الثلاثاء الخامس و العشرين من صفر المذكور، ثم جلس في داره و كل من ذكرت من آبائه تولوا قضاء القضاة بدمشق، و كذا من قبله أخوه زكي الدين الطاهر بن محمد بن علي.

وفيها: في أول ربيع الآخر جاء الخبر بأن الكامل أخلى البيت المقدس من المسلمين و سلمه إلى الفرنج و صالحهم على ذلك ، و على تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الأنبروز ، و كانت هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، و كانت سببا في أن توغرت قلوب أهل دمشق على الكامل ومن معه. ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة عليهم .

وفي هذا الشهر تقدمت جيوش الكامل مع اخوته: الاشرف والمظفر والعزيز ، و الصالح ، و ابني أخيه : الجواد بن محمد . و داوود بن المغيث ، و معهم صاحب حمص و عسكر حلب و حماة فنزلوا عند الجسور و راء مسجد القدم ، و قطعوا عن دمشق أنهارها : بانياس والقنوات ، ثم يزيد، و ثورا، و نهبت البساتين، و أحرقت الجواسق، وخربت رباع وبادت الأشجار بانقطاع الماء ، و جرت وقعات ، فقتل قوم و جرح آخرون ، وهدم كثير من الرباع و الخانات حول البلد من خارج لا سيما على كل باب.

و لما كان يوم السبت الرابع و العشرون من جمادى الأولى وقعت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها خلق كثير ، و جرح جم غفير ، و نهب قصر حجاج و الشاغور ، و أطلق فيهما النيران ، ووصلت خيل المحاصرين إلى دور البلد من جوانبه ، و دخلوا الميدان الأخضر ،ثم رجعو ا آخر النهار إلى خيامهم و قد كثرت القتلى و الجرحى في الفريقين، و كثر الحريق و النهب ، ثم تسلموا حصن عزتا (١٢٠) بما فيه من سلاح و غيره صلحا مع متوليه ، و في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة وصل الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب إلى دمشق ، و نزل بالقرب من مسجد القدم ، وأمر بإجراء نهري يزيد، و ثورا لأجل سقي الأراضي ، و خرج إليه الفاضل أحمد بن عبد الرحيم بأمان منهما ، و أنفذ الناصر من جهته في أواخرالنهار جماعة من كبار البلد من العلماء و خطيب الجامع جمال الدين الدولعي، وقاضي القضاة شمس الدين الخوئي ، و القاضي شمس الدين الجويني ابن الشيرازي، و جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية، إلى الكامل نيابة عنه في الخدمة و السلام ، ثم عادوا من الغد ، و خرج يوم الثلاثاء حادي عشر الشهر عز الدين أيبك استاذ الدار إلى الكامل بإستدعائه ، وجرى الحديث في الصلح ، و عاد ليلا، و مضى و عاد مرات ، و كان يأتي إليه عماد الدين شيخ الشيوخ فلم ينظم صلح في الظاهر.

و لما كان خامس عشر جمادى يوم السبت ، وقعت بينهم وقعة قبالة باب الحديد و في الميدان و ما بين ذلك ، و كان النصر فيه لأهل البلد وفي الغد يوم الأحد وقع الحريق و النهب من ناحية باب توما ، و أحرقت الطاحونة الأحد عشرية و الخرشنية، و التي في مرج الشيخ ، و طاحونة الأشنان أحرق بعضها ثم أطفىء ، و نهبت الدور حول ذلك ، ووقع الجرح و القتل ، و في يوم الجمعة الحادي و العشرين من الشهر خربوا قريات من قرى الغوطة، و أخرجوا أهلها منها : جوبر ، و جديا، وزملكا، ثم خربت سقبا و غيرها ، و الأسعار كلما مرت تغلو ، و الخوف حول البلد ، و قد انقطع عنه الجلب ، و بلغت أوقية الأشنان تسعة أفلس.

و حكى لي والدي أن شخصا اشترى أوقية بأربعة عشر فلسا ، و بلغت أوقية الخبز نصف درهم ، و رطل اللحم ستة دراهم . و أما الخبز فكان بحمد الله موجودا كثيرا ، و كان أطيب شيء فيه ، و هو المثلث يباع رطله بثلاثة عشر قرطاسا ، و سمعت والدي و جماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة أولاد صلاح الدين يحكون أنهم ما رأوا أشد من هذا الحصار .

ووصل الخبر بأن نائب الناصر بحصن الكرك ، و هو الأمير سعد الدين بن صارم الدين أخرج الأجناد الذين معه مع من إنضاف إليهم من العرب، و كبس العسكر الذي نازلهم من جهة الكامل ، فأخذوهم برقابهم ، و فازوا بأسلابهم ، ثم أنهم زحفوا من ناحية الميادين مرارا و الكرة عليهم ، واتخذوا مسجد خاتون و مسجد الشيخ اسماعيل و خانقاه الطاحون، و الجوسق ، الذي في الميدان الأخضر حصونا و ظهورا لهم ، و أحرق الناصر لأجل ذلك مدرسة أسد الدين و خانقاه خاتون و ما يليها من الخانات و الدور ، و بستان ابن يمن و الحمام ، و خربت خانقاه الطواويس، و ذلك في أوائل رجب و زحفوا يوم الأحد تاسع

رجب آخر النهار إلى أن وصلوا محاذاة الباب الحديد. و رأى شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوي ليلة السبت خامس عشر رجب كأن قائلا يقول له : بعد شهر تكون دمشق كأنها الخلد جنة ، و كان تمام الشهر ليلة نصف شعبان ، و كان الناس فيها في أطيب عيش لأن الصلح انتظم أول شعبان و ما زال البلد و الناس في ترف من زوال الشعث ، و كثرت الخيرات ، و لهم في ليلة النصف من شعبان موسم معلوم يحتفلون فيه ويكثرون الوقيد في المساجد ، لكن عادتهم كل سنة تكثر الزحمة والضراب و النهب و العياط، و لم يكن في هذا النصف مثل ما كنا نعرف في غيره، بل كان الناس في سكون مع قلة زحمة ، و هم في سرور و الصلح و الرخص ، فقلت : هذه الجنة التي أشار إليها المنام.

و كان سبب الصلح أن الناصرخرج ليلة الأربعاء رابع عشر رجب إلى الكامل و اجتمع به ، ثم اجتمعا مرات حتى تقرر الصلح بينهما على أن يبقى له مما كان في يده بلاد الكرك ، و بلد نابلس، و قرايا من الغور والبلقاء ، و دخل عسكر الكامل دمشق يوم الاثنين مستهل شهر شعبان، و رحل الناصر يوم الجمعة ثاني عشر شعبان من دمشق إلى بلاده التي بقيت عليه، و دخل الكامل و أخويه يوم الثلاثاء سادس عشر الشهر فزار قبر والده ، ثم خرج إلى مقامه بجوسق العادل ، ثم دخل هو و الأشر ف القلعة يوم الخميس ثامن عشر شعبان ، ثم توجهت عساكر الكامل صوب حماه، فنزلوا عليها يحاصرونها ، و معهم صاحب حمص شيركوه والمظفر بن المنصور بن تقي الدين وهو أخو سلطانها حينئذ ، و تسلم الأشرف دمشق في أواخر شعبان ، و أعطى الكامل عوضها جملة من بلاد الشرق منها : حران ، و الرها ، و رأس عين ، و الرقة، و الموزر

ثم رحل الكامل في تاسع رمضان صوب الشرق فنزل إلى خدمته صاحب حماة المحاصر بها حينئذ و هو الناصر صلاح الدين قليج

أرسلان بـن المنصور محمد بن المظفـر تقي الديـن عمر بن شاهنشـاه بن أيوب ، وتسلـم نواب الكامل حماة في آخـر رمضان ، و سار الكـامل إلى بلاده التـي جعلت لـه في الشرق ، و انتقل عسكـره فنزل على بعلبـك و رحل الأشرف من دمشق إليها و حاصروها.

و فيها : قـدم الأمجد بن فرخشـاه ، و هو ابـن عم الكامـل ، فتسلموا البلد، بقي الحصار على القلعة ، ثـم رجع الأشرف إلى دمشق . و في هذه السنة أهين جماعـة من المتجبرين ، ففـي يوم الاثنين ثالـث جمادى الآخرة علـق هبة اللـه النصراني الذي كـان متولي خـزانة السلطـان ، علق بيـده اليمنى على بـاب كنيسة مريـم و في رجليه لبنة مـن حديد ، و كـان قد عـزل عن الخزانـة و حبس، ثـم أركـب على بغل و أتي بـه من الحبـس مهانا و الحديد في رجليه و الناس حوله ليشهدوا عذابه ، فعلق على باب الكنيسة و طلـب منه أمـوال عظيمة ، و هـرب أهله و قـد كان الملعـون تمكـن من المسلمين و آذاهـم و رفع منـار النصارى ، و تسلطـوا بجاهـه على المسلمين ، و جـدد لهم بناء كنيسـة مريـم ، و شيـد بنيانها . و رفـع بابها ، وحسن عمارتها ثـم هدم ما زاده و أعيدت الكنيسة إلى مـا كانت عليه في شعبان بأمر السلطان الكامل ، و حضر ذلك جماعة من العلماء ، والعـدول، و الشيوخ و خلـق كثير مـن العامـة ، و تـولى النصارى هـدم ذلك بـأنفسهم و كتب لهم بـذلك مكتوب و قـد كان اشتهر بـالاشتغال بعلوم الأوائل بدمشق في أواخر دولة المعظم بن أبي بكر ، و في دولة ابنه داوود و كثر ذلك حتى أخمده الله بالدولة الأشرفية .

وفيهـا: يوم الثـلاثـاء تاسـع شعبـان قدم علينـا دمشـق الشيخ الامـام الزاهـد الورع رشيد الـدين عبد العـزيز بن محمـد بن الطاهـر ، المعروف بابـن عوف من ذريـة عبد الرحمن بن عـوف ، صاحب رسـول الله صلى الله عليه و سلم ، مـن فقهاء الاسكندرية و مفتيها في مذهـب مالك بن أنـس رحمه اللـه ، لشغـل عـرض له ، و اجتمعـت بـه الغـد مـن مجيئـه

بالمدرسة العادلية مع شيخنا أبي عمر ، و حكى لنا أن عمره إذ ذاك ستون سنة ؛ وكان يصوم يوما و يفطر يوما كصيام داوود عليه السلام، وأتى معه بدقيق من الاسكندرية فلم يزل يأكل منه حتى رجع و لا يتناول من غيره.

و فيها: مات جماعة من أصحابنا و معارفنا و غيرهم فمنهم : سبعة كانوا من سكان مدرستنا ، و جماعة من الفقهاء المالكية ، و من جملة من توفي من أصحابنا إثنان كانا من أعزهم علي، و أكثرهم لي اجتماعا أحدهما : زين الدين بن أحمد بن يوسف الفرغاني ، أصابته نشابة في كتفه يوم الجمعة الثالث و العشرين من جمادى الأولى، و مات يوم الاثنين السادس و العشرين منه، و دفن في مقابر الصوفية المشرفة على نهر بانياس. و كان رحمه الله فاضلا دينا خيرا حسن الأخلاق من أحسن ما رأينا من الاصحاب، وكان قد زار كثيرا من البلاد و هو في زي الفقراء لا يرجع إلى معلوم مع عرضه عليه، و قدم علينا دمشق في سنة خمس وعشرين، و كان قد حج من العراق ، فلما قضى حجه أتى مصر، ثم جاء إلى الشام، و كان رحمه الله قد عزم معي على المجاورة بالحجاز ، وكنا على هذا العزم في هذه السنة ، فاخترمته المنية ، و كان مولعا بإنشاد الأشعار الرقيقة ، أنشدني في عشية يوم أصابه السهم، قال سمعت الشيخ شهاب الدين السهروردي ينشده :

شربت الهوى والخمر صرفا كليهما
فكان الهوى عندي أشد هما سكرا
أما والهوى لو ذقت طعما من الهوى
لما كنت بعد الهوى تشرب الخمرا

و الثاني: ظهير الدين عبد الغني بن حسان بن عطية بن يخلف الكناني المصري النحوي ، توفي عاشر شوال و دفن الغد في مقابر ابن زويزان، وكان من خيار من صحبت من الأصحاب ، له أخلاق حسنة،

وتعصب و قيام في حق من يعرفه ولديه فضل ، وعبادة ، وأما كرمه وسخاؤه و جوده و أفضاله فشائع عنه مشتهر عرفه الخاص و العام رحمه الله و رضي عنه ، أردت في طريق الحجاز في رجوعي منه سنة اثنتين وعشرين و ستمائة أن أسير إليه كتابا في أوله:

أنت الظهير على المكارم كلها
من رد ذلك فهو عين معاند
عبد الغني و لست عبدا للغنى
بحر الفرائد حبر كل فوائد

و لم يكن لي صاحب أخص منه، كنت آنس به و بحديثه، و في أضيق ما أكون من الهم أجتمع به فيزول عني برحمة الله ، و كان اشتغل بالعربية على شيخنا أبي عمرو، صحبه في الديار المصرية و في سفره إلى الشام و لم يزل يعلق عنه و يشتغل عليه بالعربية و الأصول إلى أن توفي، وكان كثير الأعتناء بكلامه علق عنه أشياء كثيرة لم يعلقها أحد ، و قد حصلت و الحمد لله بخطه في ملكي

و من جملة من توفي من أصحابنا مؤذن مدرستنا الشيخ الصالح أبو الحسن على المغربي المالقي، و كان لديه علم و عمل رحمه الله، توفي في الثالث و العشرين من شهر رمضان، و دفن بمقبرة ابن زويزان، و كان عازما على الرجوع إلى المغرب إلى أهله، ثم على الأقامة بمدينة رسول الله صلى الله عليه و سلم و الآذان في منارته .

و في التاسع و العشرين من شعبان توفي فخر الدين علي بن بكمش التركي النحوي، تلميذ الشيخ العلامة تاج الدين أبي اليمن الكندي، وقال غيره توفي الشيخ فخر الدين أبو الحسن علي بن بكمش بن عبد الله التركي النحوي البغدادي يوم الاثنين سلخ شعبان من السنة بدمشق والله أعلم ، و في رابع عشر رمضان مات أبو الحسن علي بن أبي بكر الشاطبي التجيبي المقرىء ،و دفن بباب الفراديس، وكان كثير

التعبد، وكان قد اشتغل بالقراءات و النحو بالمغرب ، ثم صحب بمصر الشيخ الامام الحافظ أبا القاسم بن فيرة الشاطبي ، صاحب القصيدة ، و كان يكرمه لأجل أنه من بلده . و في يوم الأربعاء السادس و العشرين من جمادى الآخرة مات الرجل الصالح محمد السبتي النجار، و دفن بالجبل ، و كان الجمع في تشييعه متوفرا ، و كان رحمه الله كثير الاحسان لا سيما في حق الغرباء و الواردين ساعيا في مصالحهم ، و كان محبا لأهل الخير ، متقربا إليهم ، و جدد المسجد في أول الشارع الذي هو غربي دار الركوة على يسار الداخل إلى الشارع من ماله ، و أخبرني صاحبنا أبو حفص عمر بن أبي محمد الموصلي. قال حدثني الشيخ أبو الحسن علي المصمودي الضرير ، أنه سمع الشيخ عبد الصمد الدكالي، كان مجاورا بالكلاسة ، و كان معدودا من الصالحين ، يقو ل كلاما ما معناه: ها هنا رجلا من الأبدال . يعني محمد السبتي ، و لم يبينه المصمودي لعمر الموصلي إلا بعد موت السبتي، قال: و كان الشيخ عبد الصمد أوصاه أن لا يعلم به أحدا.

و في هذه السنة جاءنا الخبر بوفاة المسعود أطسيس بن الكامل صاحب مكة و اليمن ، و دفن بالمعلى، و كان عسوفا ، لكنه قمع الخوارج ، و نفى الزيدية من مكة و أمن الحاج بها ، و كان الناس بمكة في أيام دولتهم في أمن وخصب ، و كان ملكها سنة تسع عشرة وستمائة ، و بنى القبة التي على المقام

و جاءنا الخبر من المدينة شرفها الله في آخر رمضان بموت الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد الغماري ، و كان مجاورا بالحرمين من صغره ؛ و كان كثير الاحسان إلى الفقراء .

و جاءنا الخبر من مصر بوفاة أبي الحسن علي بن صالح القليني ، من قرية بمصر يقال لها قلين ، و كان من أصحاب الشيخ الشاطبي ، و حج

مع شيخنا أبي الحسن السخاوي ، و هو الذي أنشد النبي صلى الله عليه و سلم قصيدة شيخنا الميمية، و إياه عنى شيخنا بقوله:

و اغفر لمنشدنا على ذنبه

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام و مصر

و فيها: توفي البهاء بن الحنبلي أخو الناصح، و الشهاب و هو الأكبر، والناصح بعده بتسع سنين، و الشهاب بعد الناصح بتسع سنين، ومات الشهاب سنة تسع عشرة و ستمائة في شهر ربيع الأول.

ثم دخلت

سنة سبع و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بـالله أبي جعفر المنصور بن الظاهـر بن الناصر ، وسلطان دمشق الأشرف أبو الفتح موسى بن العادل بن أيوب .

ففي ليلة الجمعـة سادس عشر صفر توفي الشيخ أبـو البركات الحسن ابـن محمد بـن الحسن بـن هبة اللـه بـن عبد اللـه بن الحسـن الشافعـي المعروف بزيـن الأمناء بن عساكر ، رحمه الله . و كـان شيخا صالحا كثير الصـلاة و الذكـر، و عمره نحـو ثلاث و ثمانين سنـة إلا شهرا، و أربعـة عشر يومـا ، لأني رأيت بخطـه أن مولـده سلخ ربيـع الأول سنة أربـع و أربعين وخمسمائة و كانت لـه روايات كثيرة لكتب الحديث، و غيرهـا عن غير الحافظ أبي القاسم علي، و الصائن أبي الحسـن هبة الله بن الحسن و أمه أسماء بنت أبي البركات محمد بن الحسن بـن الدان خالة محيي الدين القاضي ، و لم يـزل الناس ينتفعون عليه بـالسماعات حتى تـوفي ، و كان قـد أقعـد في آخـر عمـره و كـان يحمـل في محفـة إلى الجامـع، و إلى دار الحديث التي أنشأها نور الدين بن زنكي رحمه الله ليسمع عليه.

أجاز لي جميـع ما يرويـه ، و سمعت عليه طـائفة من كتـب الحديث، ودفن رحمه اللـه عند قبر أخيه الفقيه المفتـي أبي منصور عبد الـرحمن بن محمـد ، المعروف بـالفخـر بـن عساكـر بـالشرف القبلي ظـاهر دمشـق ، واجتمع في جنازته خلق كثير ، حضرت دفنه، و الصلاة عليه رحمه الله

و فيهـا: في ربيـع الآخرة تسلـم الأشرف بـن العـادل بن أيـوب قلعـة بعلبك من ابن عمه بهرام شاه بن فرخشـاه بن شاهنشاه بن أيوب ، و قد كـان حصارهـا قد طـال، ثم رحـل الأشرف إلى بلاد الشرق و استخلـف على دمشق أخاه الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : في حادي عشر شهر جمادى الأولى توفي الشيخ بيرم المارديني صليت عليه بجامع دمشق و خرجت في جنازته إلى الجبل، فدفن في شرقي مقبرة ابن شيث على تل هناك ، و كان شيخا صالحا، محبا للعزلة والانفراد، صابرا على الفقر و الجوع ، كثير الصوم و المجاهدة ، و كان مقيما بالزاوية الغربية بجامع دمشق المعروفة بزاوية الدولعي ؛ و تعرف قبله بزاوية القطب النيسابوري ، و قبله بزاوية نصر المقدسي، و اسمه: بيرم – أوله باء معجمة بواحدة من تحتها، و هي مفتوحة، و بعدها ياء ساكنة معجمة باثنتين من تحتها ، و بعدها راء مفتوحة- و في جمادى الآخرة جاء الخبر بأن خوارزم شاه ملك بلاد خلاط و استولى عليها، وقتل كثيرا من أهلها .

و جاء الخبر بأن الفرنج خذلهم الله استولوا على جزيرة ميورقة و قتلوا خلقا كثيرا ، و أسروا كذلك ، و قدموا ببعض الأسرى إلى ساحل الشام، فاستفك منهم طائفة فقدموا علينا دمشق و أخبروا بما جرى عليهم .

و في آخر شعبان المعظم حوط أحمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن أحمد البيساني ، المعروف بابن القاضي الفاضل درابزينا شمالي بركة الكلاسة شمالي جامع دمشق ، و جعل داخله مكانا يقرأ فيه القرآن والسنة ، ووقف خزانة كتب في المقصورة التي تليها التي أنشأها والده، ثم خرب ذلك جميعه و أضيف إلى المسجد لما بنيت التربة الأشرفية، وبقي ذلك يقرأ فيه الحديث ، و فيه خزائن الكتب .

و في سابع عشر شهر شوال المكرم جاء كتاب الأشرف بن العادل بن أيوب ، بأنه التقى الخوارزمي و كسره ، و ذلك في أواخر رمضان ، وقد كان الخوارمي قد استولى على بلاط خلاط فسار الأشرف من دمشق، واتفق هو و ملك الروم على لقائه ، فجمعوا العساكر و التقوا معه والتقى الجمعان للقتال يوم السبت ثامن عشر رمضان.

و ذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه : أن ذلك كان في الثامن والعشرين ، و انكسرت الخوارزمية ووقع منهم في واد خلق كثير فهلكوا، هبت عليهم رياح، و نهبوا و أخذوا و تتبعوا إلى يوم عيد الفطر، وانبثت البشائر في البلاد، لأن هذا الخوارزمي كان لا يأخذ بلد إلا قتل أهله و سبى وسلب الأموال ، و فسقوا بنسائهم و أولاد هم، و قد كان الأشرف قد رأى قبل الكسرة النبي صلى الله عليه و سلم في المنام فوعده بالنصر عليهم ، فقال : يا موسى أنت منصور عليهم ، و مظفر بهم. او كما قال رسول الله صلى الله عليه و سلم ، ثم سار الأشرف ، فاسترد بلاد خلاط و أوغل في طلب الخوارزمي في بلاده ثم رجع (١١٢).

و انقطع الحاج هذه السنة أيضا من الشام فصارت ثلاث سنين متوالية ، لانقطاع الحاج من الشام .

ثم دخلت

سنة ثمان و عشرين و ستمائة

في خلافة المستنصر بالله أبي جعفر بن الظاهر ، و سلطان دمشق الأشرف بن العادل بن أيوب، و نائبه فيها أخوه الصالح بن العادل

ففي أولها: أحدثت الإمامة للصلوات الخمس بمشهد أبي بكر شرقي جامع دمشق ، جعل له إمام راتب.

و فيها : ظهر الغلاء بالديار المصرية، فإن نيلها نقص في شوال سنة سبع و عشرين ، و هو الموافق لشهر مسرى من شهور القبط.

و فيها : في صفر توفي الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق في زمانه ، و هو الذي وقف داره مدرسة للأطباء ، و هي بنواحي الصاغة العتيقة ، ومولده بدمشق سنة خمس و ستين وخمسمائة . قال القوصي أنشدني الحكيم الفاضل أبو الحسن بن التلميذ في الاسرائيلي صاحب المعتبر:

لناصديق يهودي حماقته
إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة
كأنه بعد لم يخرج من التيه

و في صفر هذه السنة توفي أيضا مجد الدين البهنسي ، و اسمه : الحارث بن مهلب بن حسن المهلبي حكى عن والده مقطعات من شعره و غير ذلك ، و كان والده نحويا أديبا فقيها ، و كان قد وزر للأشرف بالشرق ، ثم نكب بحران و اعتقل مدة ، و كشف عليه في حلب

نعمته، ثم أفرج عنه ، و أقام بدمشق إلى أن توفي بها و دفن في التربة التي وقفها عليه أخوه بجبل قاسيون.

و فيها : في آخر ربيع الآخر سافرت إلى الديار المصرية ، فدخلت دمياط في جمادى الأولى ، و القاهرة و مصر في جمادى الآخرة، والاسكندرية في ذي الحجة

وفيها: ولد أخي أبو محمد بن اسماعيل ، و فيها : في مستهل ذي الحجة توفي الزين النحوي يحيى بن معطي الزواوي رحمه الله بالقاهرة وأنا بها ، و صلي عليه بجنب القلعة عند سوق الدواب ، و حضر الصلاة عليه السلطان الكامل بن العادل ، و دفن بالقرافة في طريق قبة الشافعي رحمه الله ، على يسار المار إليها على حافة الطريق محاذيا لقبر أبي إبراهيم المزني رحمه الله ، حضرت دفنه ، و الصلاة عليه ، وكان آية في حفظ كلام النحويين .

و فيها توفي الزين الكردي أبو عبد الله محمد المقري ، و كان من أصحاب الشيخ أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ، توفي بدمشق ، و أخذ مكانه في الجامع شيخنا أأبو عمرو بن الحاجب ، و حج بالناس في هذه السنة من الشام ، و مصر، و فيها حج شيخنا ابن الصلاح ثم انقطع الحاج بعد السنة وفيها توفي الملك القاهر تاج الملوك اسحق بن العادل ، والله أعلم .

ثم دخلت

سنة تسع و عشرين و ستمائة

و أنا بالاسكندرية في خلافة المستنصر بن الظاهر بن الناصر،وسلطان دمشق الأشرف بن العادل ، و في الديار المصرية أخوه الكامل بن العادل .

ففيها: رجعت إلى دمشق في سابع ربيع الآخر ، فوجدت العماد المحلي مريضا ، و مات في تلك الأيام ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الآخر ، و اسمه: حسام بن غزي بن يونس ، و كان ظريفا شاعرا حسن المحاضرة ، و دفن في مقابر الصوفية ، حضرت دفنه ، و له ترجمة حسنة في معجم القوصي .

و في مستهل جمادى الأولى مات صاحبنا أبو القاسم بن ابراهيم ، المعروف بالعلم ابن النحاس، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه ، و كان شابا حسنا دينا حسن الخلق ، و السمت رحمه الله.

و فيها: في تاسع جمادى الأولى توفي القاضي شرف الدين اسماعيل بن ابراهيم بن أحمد الشيباني الحنفي ، المعروف بابن الموصلي ، و دفن بالجبل حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ،و مولده في رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة أربع و خمسمائة ، و أجاز لي جميع ما يرويه ، و كان شيخا دينا لطيفا.

و فيها : في إحدى الجمادين عزل القاضيان الشمسان الخوئي و ابن سني الدولة، وولي مكانهما قاضي القضاة العماد عبد الكريم بن الحرستاني، و عزل في سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة، و تولى ابن السني.

و فيها : وصل إلينا الخبر بوفاة الشيخ ابن عيسى بالاسكندرية، وكانت له مسموعات كثيرة على الحافظ السلفي ، و غيره و أجاز لي جميع.ما يرويه .

و فيها : توفي الجمال بن الحافظ عبد الغني الحنبلي ، و دفن بالجبل، وفيها : توفي ضياء الدين عيسى بن الفقيه أبي الحسن بن سيدهم المصري و يعرف أبوه بصمد يعقوب ، بدمشق عند يوسف بن أبي الحسن ، و كان كما أخبرني أديبا فاضلا و من شعره:

أرسلت من كبد لما رميت به
ما سار من كبد إلا إلى كبد

و أجازني المستنصر بن الظاهر بن الناصر و أنا بدمشق . ففيها أنشئت دار تعرف أولا بدار قايماز النجمي وولي الاشتغال فيها مستهل رمضان قدومه من الحج ، و لبث إذ ذاك بمصر ، و كان قد أنشدني لأخيه :

القوس ابنها فغدت تهن
والأم قد تحنو على الولد

من الأبيات الفائقة .

ثم دخلت

سنة ثلاثين و ستمائة

في خلافة المستنصر

و فيها : تم بناء دار الحديث الجديدة التي أنشأها الأشرف موسى بن أبي بكر بن أيوب.

و في هذه السنة توفي جماعة من السلاطين منهم : المغيث بن المغيث ابن العادل ، و العزيز عثمان بن العادل ،و ابنه . توفي العزيز عثمان ليلة الحادي عشر من رمضان، و توفي المغيث في حصار حصن كيفا في المحرم ، و مظفر الدين صاحب إربل و غيرهم ، مولد العزيز عثمان في ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة ، و مات بالنعيمة .(١٢٢)

ثم دخلت

سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة

ففيها : تو في بهاء الدين بن أبي اليسر في خامس عشر المحرم، ومولده سنة خمس و ستين و خمسمائة

و فيها مات الشيخ أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي المعروف بالسيف الآمدي، و دفن بجبل قاسيون رابع صفر وكان حسن الأخلاق ، كبير القدر في معرفة الأصولين ، و الجدل، والخلاف، و المنطق، و علوم الأوائل ، و صنف فيها كتبا كثيرة .

و فيها : في شعبان توفي القاضي عبد الرحيم بن محمد بن عساكر ، روى عن محمد و غيره، و مولده سنة تسع و خمسين و خمسمائة بدمشق في رمضان المبارك .

و فيها : في شعبان أيضا توفي بالموصل العز علي بن محمد بن عبد الرحيم الجزري المعروف بابن الأثير المؤرخ ، صاحب المصنفات ولد سنة خمسين و خمسمائة . و فيها : ولدت أم الحسن فاطمة بنت عبد الرحمن ابن اسماعيل في الثالث و العشرين من شوال جعلها الله ذرية مباركة .

و فيها : جاءنا الخبر إلى دمشق بوفاة الشيخ العالم الزاهد أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف القرطبي بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر صفر من هذه السنة ، و صلى عليه الشرف محمد بن أبي الفضل المرسي، و أخبرني بدمشق أن وفاته كانت مستهل شهر صفر سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بالبقيع قريبا من قبر عثمان رضي الله عنه ، و كنت اجتمعت به بالمدينة و بمصر ، و أجاز لي رواية ما يصح عنه روايته ، و كان إماما قدوة له قبول عند أهل الآخرة ، و أهل الدنيا .

و فيها : تو في عندنا بدمشق النجم التفليسي ، و اسمه ثابت بن ناوان ، و كان كبير المحل ، حسن الأخلاق مشتغلا بعلم الشريعة والطريقة ، ودفن في مقابر الصوفية ، و فيها: توفي الزين بن قفرجل ، والشمس ابن قوام• و كانا من خيار عدول البلد ، و في ليلة الجمعة خامس شوال توفي البرهان أبو الحسن اسماعيل بن أبي جعفر بن علي القرطبي إمام الكلاسة ، و دفن من الغد بجبل قاسيون عند قبر والده ، وكانت له جنازة عظيمة . سمع على الحافظ أبي القاسم بن علي و على غيره ، و حضرت دفنه والصلاة عليه ، و كان في حياته منقطعا بالمنارة الشرقية مشتغلا بالطهارة و الصلاة . ثم مات الشيخ عبد الله الأرمني ، و كان شيخا صالحا منقطعا بالجبل بعد البرهان بخمس عشرة ليلة او نحوها ، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله . ثم جاءنا الخبر في هذه السنة من حلب بوفاة الفقيه العالم نجم الدين بن الخباز ، و كان مشهورا بالعلم ، و اللطف ، والتواضع رحمه الله .

و في هذه السنة أحدثت القيسارية التي وراء سوق النحاسين ، بفتح بابها إلى الزيادة ، و نقل إليها سوق الصاغة ، و كذلك ما أحدث من الدكاكين في وسط الزيادة ، كان في هذه السنة .

و فيها : وقعت وقعة بين سلطان الروم و بين ابن أيوب .

و لم يحج في هذه السنة إلا من اليمن أو من ركب البحر من مصر .

ثم دخلت

سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة

ففيها : توفي الشهاب ابن عصرون في ليلة الثامن و العشرين من المحرم و هو : أبو العباس عبد الله بن المطهر بن شرف الدين أبي سعد ، و في المحرم توفي البدر الوكيل بمجلس الحكم ، و اسمه : عبد المولى بن عبد السيد بن ابراهيم ، و دفن بالجبل ، روى عنه القوصي في معجمه.

و فيها : توفي القاضي بهاء الدين بن شداد بحلب ، و اسمه يوسف ابن رافع بن تميم ، و كان من رؤسائها و كان للناس به نفع ، و كنت قد اجتمعت بابن شداد بدمشق و أجاز لي جميع ما يرويه ، ثم سمعت عليه بمصر ، و عند قبة الشافعي رحمه الله تعالى سنة ثمان وعشرين وستمائة، وفي هذه السنة جاءنا الخبر بموت صاحبنا صفي الدين حسن ابن أبي طالب البغدادي المقيم بمدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شابا فاضلا، أديبا . كتب لصاحب المدينة ثم وزر له . و اشتد على قمع المفسدين بها فوثب عليه ليلة العشر من ذي الحجة سنة إحدى و ثلاثين جماعة من سفهاء على باب مسجد المدينة ، على ساكنها السلام، قبيل العشاء الآخرة فضربوه بأسيافهم حتى قتلوه ، و هو داخل من باب المسجد ، أخبرني بذلك الشيخ أبو الفضل المرسي، قدم علينا في هذه السنة ، و كنت قد اجتمعت بهذا الشهيد رحمه الله بدمشق مرارا، وبالمدينة في حجتي سنة احدى و عشرين و اثنتين و عشرين و ستمائة.

و في مستهل سنة اثنتين و ثلاثين توفي الشهاب السهروردي ببغداد، وكان كبير القدر و الشأن، و له تصانيف في علم التصوف، و قدم دمشق مرارا و أنا بها صغير ، و عقد بها مجلس الوعظ و لم أره رحمه الله ،

ومولده سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة ، و اسمه : عمر بن محمد بن عبد الله البكري .

و فيها : في ثالث جمادى الأولى ولد أخي عبد الحليم بن اسماعيل جعله الله مباركا.

و فيها : في سادس عشر شهر رجب المرجب، توفي الشيخ العدل أبو علي الحسن بن يحيى بن صباح المصري و دفن بالجبل، ، حضرت الصلاة عليه بظاهر دمشق خارج باب الفراديس ، سمعت عليه أكثر الخلعيات ، و لي منه إجازة ، و مولده بمصر في جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وكانت له ديانة ؛ وأصالة ، وأمانة ، وعدالة رحمه الله.

و في هذا الشهر خرب خان بالعقيبة ، كان كثير الفسق و الفساد ليجعل مسجدا تصلى فيه الجمعة ، فتم جامعا كبيرا حسنا سمي بجامع التوبة ، و ذلك في أيام الأشرف أبي الفتح موسى بن أبي بكر بن أيوب . و هو المجدد أيضا لمسجد جراح خارج باب الصغير .

و في ليلة ا لأحد تاسع شعبان توفي التقي بن ماسوية ، و اسمه : أبو الحسن علي بن أبي الفتح المبارك بن الحسن بن أحمد بن ماسوية ، بدمشق ، و دفن بباب الصغير ، و كنت مريضا تلك الأيام فلم يقدر لي شهود جنازته ، و كان شيخا خيرا حسن الأخلاق متواضعا لطيفا مشهورا بالقراءات ، سمع من الحازمي و غيره و أجاز لي رواية جميع ما يرويه ، وذكر لي أنه ولد سنة ست و خمسين و خمسمائة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة

ففيها: توفي أبو الخطاب عمر بن دحية المحدث في ليلة الثلاثاء رابع ربيع الأول بالديار المصرية ، و لي منه إجازة

و فيها : توفي البهاء الأراني ، و اسمه عبد الخالق بن الشافعي ، وكان شيخا متدينا عالما مشهورا ببلاده ، ثم انتقل إلى دمشق في آخر عمره ، ومات بها في خامس عشر شوال من هذه السنة و دفن بالجبل، حضرت الصلاة عليه وشيعته إلى المصلى بباب الفراديس.

و فيها : في ذي القعدة وصل إلينا خبر موت خطيب جامع مصر الشيخ الفقيه الدين ، أبو الطاهر محمد بن عبد الرحمن الجابري ، من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه، و اشتهرت نسبته بالمحلي،

و كان من أصحاب الشيخين الشاطبي ، و القرشي، و كنت اجتمعت به في مصر غير مرة رحمة الله عليه، ولد سنة أربع و خمسين و خمسمائة .

و فيها : مات أبو علي الحسن بن اسماعيل المعروف بالقيلوي البغدادي ، ذكره القوصي في معجمه.

ثم دخلت

سنة أربع و ثلاثين و ستمائة

ففي ثالث منها توفي الناصح بن الحنبلي الواعظ ، و اسمه: عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب من ولد سعد بن عبادة الأنصاري، وكان واعظا متفننا، و له مصنفات . و له بنيت المدرسة التي بالجبل ، للحنابلة رحمه الله و مولده سنة أربع و خمسين و خمسمائة ، و مات أخوه شهاب الدين عبد الكريم بن نجم ثامن ربيع الأول سنة تسع و عشرين و ستمائة ، و مولده سنة سبع و خمسين و خمسمائة .

و فيها: جاءنا الخبر بموت أبي عمرو عثمان بن دحية بالقاهرة ، وهو أخو أبي الخطاب المقدم ذكره، رحمه الله.

و فيها : قدم دمشق الشيخ الفاضل الأصيل القاضي أبو مروان محمد ابن أحمد بن عبد الله بن عبد الملك بن عبد العزيز بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن سريعة بن رفاعة بن صخر بن سماعة اللخمي الأندلسي الإشبيلي ، من بيت كبير من الأندلس ، يعرف ببيت الباجي مشهور به، كثير العلماء و الفضلاء . أصلهم من ناحية القيروان ، و ليس منهم أبو الوليد الباجي الفقيه ، ذاك بيت آخر من ناحية الأندلس ، قدم أبو مروان حاجا من بلاده في البحر إلى عكا من ساحل دمشق ، ثم دخل دمشق سادس شهر رمضان من هذه السنة ونزل عندنا بالمدرسة العادلية ، و جده الأعلى أحمد بن عبد الله بن محمد ابن علي قدم الديار المصرية و حج منها و معه ولده محمد بن أحمد، ويعرف بصاحب الوثائق ، و سمعوا بها جماعة من العلماء ، و ذكر أبو عبد الله الحميدي أحمد بن عبد الله هذا في تاريخه « جذوة المقتبس» وكناه أبو عمر ، و ذكر أنه سكن اشبيلية و أثنى عليه كثيرا و قال: مات

في حدود الأربعمائة ، روى عنه أبـو عمر بن عبد البر وغيره، و أبـوه عبد الله بن محمد بـن علي يعرف بالراوية، و ذكره الحميـدي أيضا، وذكر ابن بشكوال في كتـاب الصلة : عبد الملـك بن عبد العـزيز جد هـذا الشيخ القـادم ، و أثنى عليـه، و قال: تـوفي في سنة اثنتين و ثـلاثين وخمسمائة، (١٢٣) و كـان هذا أبـو مـروان سلمه اللـه حسـن الأخـلاق ، فاضـلا، متواضعـا ، محسنا، و سمعتـه يقول و قد سئـل في إعارة شيء فبـادر إليه بنفسه، ثم قـال : أنا عندي في قوله تعـالى : (و يمنعون الماعون) (١٢٤) هو كل شيء و استفدنا من هذا الباجـي فائدة جليلة ، و هو معاينة قدر مد النبـي صلى الله عليـه وسلم فإنـه عندهـم متوارث، و قـد أخبر عن ذلك أبو محمد بن حزم في كتابه « المحلى» وعـايرته الحمد لله أنا بدمشق حينئذ و هو الكيل الكبير فوجدت مـدنا يسع صاعين إلاّ يسيرا، ووجدته ممسوحـا يسع صاعا و نصفـا أو شيئا فيكون مـدان ممسوحان ثلاثـة أصع زائدة ، عندي طاسة بيضاء صغيرة عايرتها بـه فوجدتها تسع مدين و هما نصـف صاع. قـرأت في كتاب «المحلى» لابـن حـزم: و خرط لي مـد على تحقيق المد المتوارث عند آل عبد الله بن علي الباجي ، و هو عند أكبرهم لا يفـارق داره ، أخرجـه إلي – يعني– الـذي كلفتـه ذلك عبـد الله بـن أحمد بن عبد عبـد الله بن علي المذكور، و ذكر أنه مـد أبيه ؛ و أن جده أخذه و خرطه على مد أحمد بن خالـد ، و أخبر أحمد بن خالد أنه خرطه على مد يحيى الـذي أعطاه إياه ابنه عبيـد الله بن يحيى ، و خـرطه يحيى على مد مـالك ، قال أبـو محمد : و لا شـك أن أحمد بن خالـد صححه أيضا على محمد بن وضـاح ، الذي صححه ابن وضاح بالمدينـة. قال أبو محمد : ثم كلتـه بالقمح الطيب ثم وزنتـه فوجدته رطـلا واحدا و نصف رطل بـالفلفلي، لا يزيد حبة، و كلتـه بالشعير إلا أنه لم يكن بـالطيب، فوجدتـه رطلا واحدا ونصف أوقيـة ،وسألت عن الـرطل الفلفلي فقيل لي هو سـت عشرة أوقية ، كـل أوقية عشرة دراهـم ، و في تقديـر ابن حـزم نظر، والله أعلم .

توفي هـذا الشيخ رحمه اللـه بمدينـة القاهـرة سنة خمس و ثـلاثين بعد رجوعه مـن الحج ، أتانا خبره بدمشـق. و في هذه السنة جاءنـا الخبر بأن الكفار من الترك ، و هـم التاتار خذلهم اللـه ملكوا مدينة إربـل و فعلوا فيها ما هـي عادتهم في البلاد التي أخـذوها قبل ، و كان دخـولهم أيضا في التاسـع و العشرين مـن شوال سنة أربـع و ثلاثين ، ثـم هزمهـم الله وشردهم على يدي عسكـر الخليفة المستنصر بالله أبي جعفـر المنصور بن الظاهر بن الناصر .

و فيهـا : في الساعـة الأولى من يـوم الاثنين الخامـس و العشرين مـن ذي القعـدة سنة أربـع و ثـلاثين و ستمائة ولد لي مـولـود سميته محمـد، وكنيته أبا الحزم، جعله الله مباركـا ذرية طيبة ، ثم مات في أواخر جمادى الأولى سنـة ثـلاث و أربعين و ستمائة ، و لـه ثماني سنين و نصـف رحمه الله .

و في هذه السنـة : توفي جماعة مـن الملوك منهم: ملـك حلب وأعمالها الملك العزيز محمد بن الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، و منهم صاحب بلاد الروم علاء الدين في خامس شوال.

وانقطـع الحاج هـذه السنة مـن نـاحيـة العراق ، و خـرج الحاج مـن الشام، و جـرت عليه نكبة شـديدة من جهـة العطش بأرض بسيـط قبل وصولهم سجر (١٢٥) بنحو ثلاث مراحل

ثم دخلت

سنة خمس و ثلاثين و ستمائة

ففي رابع المحرم منها توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الأشرف أبو الفتح موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، و دفن بالقلعة إلى أن بنيت تربته جوار كلاسة الجامع فنقل إليها ، و تولى دمشق بعده بعهد منه أخوه الملك الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب .

و فيها: توفي الشمس محمد بن عبد الكريم بن رزمين البعلبكي النحوي فجأة ، رحمه الله و رضي عنه.

و في أواخر ربيع الأول حوصرت دمشق، و فيها الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، حاصره الكامل أخوه و ابن أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر ، فجرى نحو الحصار المتقدم سنة ست و عشرين ، إلا أن هذا الحصار كان أكثر خرابا في ظاهر البلد و حريقا و مصادرة ، و أقل غلاء ، و لم تطل مدته فإن الصلح جرى في أوائل جمادى الأولى من السنة يوم الأربعاء، ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط ، واليوم الذي فتحت فيه آمد . كل ذلك يوم الأربعاء

و في يوم الأحد الآتي بعد يوم الصلح توفي خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبي الفضل بن ياسين الدولعي ، قلت: و توفي الدولعي يوم الأحد رابع عشر جمادى الأولى من السنة ، و دفن بجيرون في مدرسته التي أنشأها ، و تولى مكانه في التدريس بالزاوية الغربية الشيخ الفقيه عبد العزيز بن عبد السلام ، وولي الخطابة بعده الكمال بن طلحة في أواخر شعبان.

و فيها : في ليلة الخميس ثاني عشر جمادى الآخرة توفي القاضي

شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازي ، و دفن من الغد في الجبل، و قد بلغ من العمر ستا و ثمانين سنة أو نحوها ، و كان آخر المشهورين بالرواية عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و شيعته إلى مصلى باب الفراديس عند مسجد فيروز رحمه الله و رضي عنه ، و لقد كان حسن الأخلاق ، طلق المحيا ، عالما بمذهب الشافعي مفتيا فيه ، تولى القضاء ببيت المقدس ، ثم بدمشق مرارا.

و في ليلة الاثنين سادس جمادى الآخرة أمر السلطان الملك الكامل أن لا تصلى في المسجد الجامع صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد ، و هو خطيب الجامع، و أبطل ما عداه من أئمة الحنفية ، و الحنابلة والمشهدين و ذلك لما كان في إمامتهم من التشويش على المصلين في صلاة المغرب ، لأنهم يسرعون في الصلاة جملة بخلاف غيرها من الصلوات ، لأنهم يكونون فيها متروين .

وفيها : جاءنا الخبر بوفاة العز بن الماسح توفي ليلة التاسع من جمادى الأولى وهو : أبو الحسن علي بن نصر الله بن علي بن الحسن بن الحسن ابن أحمد الكلالي الدمشقي بمصر ، و كان فقيها ، فاضلا من أهل بيت علم دمشقي الأصل ، و كان قد ولي التدريس بجامع السراجين بالقاهرة .

و فيها : يوم الجمعة سادس رجب توفي أمين الدين بن قوام ، و كان من خيار عدول البلد ، و أصله من الرصافة ، و فيها: ليلة الخميس الثاني و العشرين من رجب توفي بقلعة دمشق السلطان الملك الكامل بن العادل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، و كانت مدة ملكه بدمشق شهرين ونصف تقريبا ، و كان بينه و بين موت أخيه الملك الأشرف ستة أشهر وسبعة عشر يوما ، فسبحان من لا يزول ملكه ، و دفن بقلعة دمشق إلى

أن بنيت تربته جوار الجامع شماليه بين دويرتي السميساطي (١٢٦) ، ونقل إليها ليلة الجمعة الحادي و العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبع و ثلاثين و ستمائة ، و تولى دمشق و الديار المصرية بعده ولده العادل . وكان نائبه بدمشق الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود ابن العادل بن أبي بكر بن أيوب ، و تولى بلاد الجزيرة ، و ديار بكر ، وربيعة ولد الكامل الملك الصالح نجم الدين أيوب بن محمد.

وفيها : في سادس شعبان توفي القاضي زين الدين عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان الأسدي ، عرف بابن الأستاذ بحلب، وهو قاضيها يومئذ بعد القاضي بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد الموصلي رحمه الله ، و كان فاضلا ، علما ، رئيسا حسن السمت و الخلق عفيفا قدم دمشق مرات و كان أبوه من الصالحين.

و فيها : في خامس ذي القعدة توفي القاضي شمس الدين يحيى بن هبة الله المعروف بابن سني الدولة ، قاضي قضاة دمشق يومئذ ، و دفن بالجبل ، و كان كبير السن و له جنازة حفلة ، حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب مصلى باب الفراديس رحمه الله ، و كان تولى القضاء بالقدس الشريف قديما ، ثم تولى نيابة القضاء بدمشق مرات من قبل الزكي الطاهر بن علي ، و من قبل الجمال عبد الصمد بن الحرستاني ، ثم وليه شركة مع الشمس الخوئي مدة ، ثم عزلا وولي العماد عبد الكريم بن عبد الصمد بن الحرستاني، ثم عزل ابن الحرستاني وولى ابن سني الدولة استقلالا ، فلم يزل قاضيا حتى توفي في التاريخ المذكور، و تولى بعده استقلالا شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي، فعدل جماعة من أهل البلد منهم كاتب هذه الأحرف أي منشيء، الكتاب، تولى الخوئي يوم الاثنين سابع ذي القعدة المذكورة . و فيها : توفي الشيخ أبو العباس بن القسطلاني بمكة شرفها الله تعالى و دفن بالمعلاة رحمه الله .

و فيها : تولى كمال الدين بن طلحة الخطابة بجامع دمشق و خطب يوم الجمعة الحادي و العشرين من شعبان. و في آخر سنة خمس قبض على الصفي ابراهيم بن مرزوق ، و استصفي جميع ماله ، و أودع السجن، ثم نقل إلى سجن حمص ، و انقطع خبره إلى جمادى الأولى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة ، ثم إنه أخرج من سجن حمص و قدم إلى دمشق .

وفيها: قدم دمشق أبو الفضل جعفر الهمذاني ، من أهل الاسكندرية من أصحاب السلفي و سمع عليه بها.

ثم دخلت

سنة ست و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الجواد يونس بن مودود بن أبي بكر بن أيوب ، وبالأراضي المقدسة و أعمالها الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب ، و بالديار المصرية العادل أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن أيوب.

و فيها : توفي شيخ أصحاب أبي حنيفة بدمشق جمال الدين محمود ابن أحمد بن عبد السيد البخاري ، المعروف بالحصيري،و كان رحمه الله مسنا فقيها دينا متواضعا، مولده ببخارى في جمادى سنة ست و أربعين وخمسمائة ، و قدم دمشق فتولى تدريس النورية في سنة إحدى عشرة، وكان بها الشريف داوود بعد برهان الدين مسعود ، و توفي ثامن صفر من هذه السنة و دفن بمقابر الصوفية على حافة الطريق ، و بني قبره بحجارة، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق تحت النسر بصحن الجامع المعمور، و كانت له جنازة حفلة رحمه الله .

و فيها : في السادس و العشرين من صفر توفي بدمشق الشيخ أبو الفضل جعفر بن علي بن أبي البركات بن جعفر بن يحيى الهمذاني المقرىء المحدث من أصحاب الشيخ الحافظ أبي الطاهر السلفي ، و كان قدم دمشق في صحبة الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب ، و بلغ رحمه الله من السن نحو تسعين سنة، و دفن بمقابر الصوفية قريبا من قبر النجم ثابت بن تاوان التفليسي رحمهما الله، حضرت الصلاة عليه خارج باب النصر ، و شيعته إلى المقبرة المذكورة المطلة على وادي بردى ، و كنت قد رأيته بجامع الاسكندرية عمرها الله سنة كنت بها، و هى سنة ثمان و عشرين و ستمائة في آخرها ، ثم رأيته بدمشق و أجاز لي و لولدي محمد و فاطمة رواية جميع مروياته.

وفيها: في السادس و العشرين من جمادى الأولى توفي الشيخ عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ صدر الدين علي بن حموية ، قفز عليه ثلاثة نفر داخل قلعة دمشق، فقتله أحدهم ، و دفن في الغد بجبل قاسيون، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى مسرح سوق الخيل والغنم، و كانت له جنازة حفلة ، و كان من بيت علم و تصوف و إمرة رحمه الله ، و كان من أعيان المتعصبين لمذهب الأشعري ، ومولده يوم الاثنين سادس عشر شعبان سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة بدمشق .

وفيها : في مستهل جمادى الآخرة قدم دمشق مالكا لها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب، و استوزر الصاحب جمال الدين علي بن حريز ، و حاصر حمص و قصد الديار المصرية.

و فيها : توفي السديد أبو الفتيان بن عبد الرزاق الموصي إليّ في حق ولده عبد الله، يوم الأربعاء ثامن عشر جمادى الآخرة ، و دفن على أبيه بباب الصغير، و كان حج سنة عشر و ستمائة صحبة والدي رحمه الله. وهي حجة والدي الأولى من أربع حجات، و مولده على ما رأيته بخط عمي أبي القاسم رحمه الله، قال: ولد أبو الفتيان بن الشيخ الأمين السديد أبي القاسم بن عبد الرزاق في العشر الأول من رجب سنة ثلاث و تسعين وخمسمائة . وفي الليلة المذكورة حج والده إلى مكة حرسها الله.

وفيها : يوم الجمعة سابع و عشرين جمادى الآخرة توفي الصاحب جمال الدين علي بن سلامة بن البطين بن جرير الرقي ، و كان وزيرا للأشرف ، ثم وزر للصالح بن الكامل ، و دفن بمقابر الصوفية .

و فيها ظهر بدمشق غلاء شديد لم يعهد بمثله قبلها على ما ذكره

المشايخ ، بلغت غرارة الحنطة خمسة و عشرين دينارا بالمصرية ، و ذلك مائتا درهم و خمسة و عشرون درهما ، و زاد رطل الخبز الخرجي على درهم ، و جميع أنواع المطعومات غلت ، ثم إن الأسعار أخذت في الارتخاء في أواخر هذه السنة و الحمد لله تعالى.

وفيها توفي الحافظ زكي الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد البرزالي الاشبيلي بحماة رابع عشر رمضان ، جاءنا خبره إلى دمشق، وكان رحمه الله معتنيا بعلم الحديث ، مفيدا لأصحابه ، متواضعا أقام بدمشق سنين كثيرة بمسجد فلوس و غيره ، و كان شيخ الزاوية بمشهد ابن عروة في الحديث ، ثم سافر في هذه السنة إلى حلب ، فلما رجع إلى حماة توفي رحمه الله.

ثم دخلت

سنة سبع و ثلاثين و ستمائة

وسلطان دمشق الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وبمصر أخوه لأبيه العادل أبو بكر سيف الدين.

ففيها : في أولها مات الشيخ شمس الدين أبو طالب محمد بن عبد الله بن صابر السلمي . عرف بابن سيده، من أهل بيت كبير من دمشق من أهل العلم و الحديث و التصوف ، و صحب الشيخ عتيقا و غيره رحمه الله ، كان يخضب ، و ليلة عاشوراء مات التقي محمد بن طرخان ابن أبي الحسن الصالحي الحنبلي، و كان من المشهورين برواية الحديث

وفيها: توفي الضياء بن الأثير بالمورفة من بغداد و هو مرسل إليها، وهو صاحب «المثل السائر» و «الوشي المرقوم»، و كان قد وزر للأفضل.

وفيها : نقل الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق إلى تربته شمالي الجامع ، في ليلة الجمعة الحادي و العشرين من ربيع الأول .

وفيها: يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من صفر قدم دمشق صاحب بعلبك و حمص الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، والمجاهد شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذي ، فدخلا بعسكر و جند عنوة من غير حصار ، و في الغد ملكا القلعة ، و خربت بذلك دار الحديث الأشرفية وغيرها من الدور و الحوانيت تحت القلعة، و كان بقلعة دمشق المغيث بن الصالح بن الكامل بن العادل بن أيوب، وكان أبوه الصالح ببلاد فلسطين نازلا بنابلس في عسكر له، تقدم أوله إلى غزة على عزم أخذ الديار المصرية من أخيه العادل بن الكامل ، فانفض عنه جمعه لما بلغهم أخذ دمشق من ولده، و رجعوا إلى دمشق و بقي في جمع

قليل ، فأخذه ابن عمه الناصر بن داوود بن عيسى بن أبي بكر فسجنه بقلعة الكرك إلى أواخر رمضان من هذه السنة ، فأخرجه الناصر و اتفقا وقصدا الديار المصرية فأخذاها و قبضا على العادل بن الكامل ، وكان دخولهما مصر في ذي القعدة من هذه السنة ، ثم رجعوا إلى دمشق في ذي القعدة سنة اثنتين و أربعين و ستمائة .

وفيها : توفي في المدرسة العادلية الفصيح محمد بن أبي النجم بن البطريق الشاعر الجزري الأديب ، و له شعر حسن فائق رحمه الله .

و فيها : في شهر رجب المرجب توفي صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي بحمص، و جاء الخبر إلى دمشق ، و عمل له العزاء بها بجامع دمشق في الحادي والعشرين من رجب رحمه الله

وفيها : توفي بعد صلاة الظهر من يوم السبت سابع شعبان قاضي القضاة بالشام يومئذ شمس الدين أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر الخوئي الشافعي بالمدرسة العادلية، و دفن من الغد بجبل قاسيون، حضرت دفنه و الصلاة عليه ، و كان مولده سنة اثنتين و ثمانين وخمسمائة فيما قرأته بخط ولده محمد ، و كان رحمه الله حسن الأخلاق لطيفا ، كثير الانصاف ، عالما فاضلا في علوم متعددة جمة ، محققا عفيفا متواضعا كثير المداراة محببا إلى الناس ، و كانت له جنازة حفلة، وصنف تصانيف من جملتها عروض هو عندي بخطه فقلت فيه:

أحمد بن الخليل أرشده الله
لما أرشد الخليل بن أحمد
ذاك مستخرج العروض وهذا
مظهر السر منه والعود أحمد

و من لطفه ما قاله بالمئذنة الشرقية من اجتماع الفقر و القناعة أنه

قال : ما أقدر على إمساك المناصب ، و تولى القضاء بعده بدمشق والتدريس بالمدرسة العادلية رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد بن اسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجيلي الشافعي ، و كان قاضي بعلبك قبل ذلك لكن ظهر منه سوء سيرة و عسف وفسق وجور ومصادرة في الأموال لا سامحه الله .

و فيها : في العشر الآخر من ربيع الآخرة تولى الخطابة بدمشق أحق الناس بالأمانة يومئذ الشيخ الفقيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي ، مفتي الشام يومئذ ، ناصر السنة ، قامع البدعة . قلت ذكر العز بن عساكر في المياومات أنه تولى ابن خلكان خطابة دمشق في يوم الأربعاء ثالث شهر ربيع الاخر سنة سبع وثلاثين وستمائة والله اعلم. وفي ربيع الآخر يوم الأحد رابع عشره كانت وقعة الهيجاوي مع الفرنج على غزة و قتل ابن علكان .

و فيها : توفي العلم العطار الإشبيلي المحدث ، و كان فاضلا دينا في شوال من هذه السنة ، و الصفي بن المركب في يوم واحد ، و دفنا بمقبرة الصوفية ، حضرت دفنهما و الصلاة عليهما .

و في سادس عشر ذي القعدة في شهر حزيران في أيام المشمش ، جاء مطر عظيم نهارا جرت منه سيول عظيمة هدمت كثيرا من الحيطان والبيوت ، و كنت يومئذ بأرض المزة.

و فيها : توفي بمكة الفقيه علي الطبري خطيب مكة ، و إمام المقام رحمه الله تعالى .

ثم دخلت

سنة ثمان و ثلاثين وستمائة

في خلافة المستنصر بالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر ابن أخيه الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر ابن أيوب.

ففيها : سلم حصن شقيف أرنون إلى الفرنج خذلهم الله تعالى سلطان دمشق ، و أنكر ذلك عليه شيخا الشافعية و المالكية بدمشق ابن عبد السلام ، و أبو عمرو ، فعزل ابن عبد السلام عن خطابة دمشق بذلك السبب ، و سجنا بقلعة دمشق ، و تولى الخطابة بجامع دمشق، والتدريس بالزاوية الغربية خطيب بيت الأبار عماد الدين داوود ابن يوسف المقدسي الشافعي .

و فيها في ثاني عشر ربيع الأول توفي الملك المظفر أبو الخطاب تقي الدين عمر بن الملك الأمجد صاحب بعلبك بأرض نوى، و حمل إلى دمشق ، و دفن بتربة والده و جده بالشرف الشمالي ، و كان له نظم حسن كأبيه، ذكره القوصي في معجمه .

وفيها : في ثالث عشر ربيع الأول توفي والدي رحمه الله و دفن على أبيه بباب الفراديس ، و فيها : في الثاني و العشرين من ربيع الآخر توفي بدمشق المحيي بن العربي و اسمه : محمد بن علي بن محمد بن العربي، أبو عبد الله الطائي الحاتمي ، قرأته من خطه و ذكره الزيني في تاريخه، ودفن بمقبرة القاضي محيي الدين بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق يوم الجمعة ، و شيعته إلى الميدان بسوق الغنم ، و كانت له جنازة حسنة ، و له تصانيف كثيرة ، و كانت عليه سهلة ، و له شعر

حسن ، و كلام طويل على طريق التصوف و غيره ، و هو من بلاد الأندلس ، طاف البلاد شرقا و غربا ، و أقام بمكة مدة

و في ثالث شعبان كسرت الخوارزمية بنواحي حلب .

و فيها : أسمعت ولدي محمدا الحديث في مستهل ذي الحجة من هذه السنة .

وفيها : توفي القاضي نجم الدين أبو العباس أحمد بن خلف بن راجح المقدسي الشافعي ، المعروف بابن الحنبلي بدمشق في يوم الجمعة سادس شوال سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة ، و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق ، و كان شيخا فاضلا ، دينا عارفا في علم الخلاف وفقه الطريقة ، حافظا للجميع بين الصحيحين للحميدي، وكانت له رحلة طويلة في طلب العلم إلى بلاد خراسان و العراق، وكان متواضعا حسن الخلق رحمه الله ، و كانت ولايته لقضاء دمشق نيابة عن يونس بن بدران المصري ، و أحمد بن الخليل الخوئي ، و عبد الكريم بن أبي الفضل الحرستاني ، و يحيى بن هبة الله بن سني الدولة ، و عبد العزيز الجيلي إلى أن مات ، و درس بالمدرسة العذراوية ، والصارمية والحسامية ، و الصالحية .

و فيها : توفي الشيخ سالم المغربي الهكوري الهيلاني ، هيلان نجد من قبيلة هكورة ، المقيم ببيت الأبار ، و دفن بها في الرابع و العشرين من ذي الحجة ، و كان من الصالحين .

و في آخر هذه السنة و أول التي بعدها ظهر نقصان المياه من السماء والأرض، نقصت الأنهار، ونقصت الآبار و هلك الزرع و الثمار.

ثم دخلت

سنة تسع و ثلاثين و ستمائة

في دولة المستنصر بـالله ، و سلطان دمشق الصالح اسماعيـل بن أبي بكر بن أيوب ، و بمصر الصالح أيوب بـن محمد بن أبي بكر بن أيوب، وعلى الأرض المقدسة الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب

ففيها : توفي العفيف بن يسار بن خلف بن سراج الشاغوري ، و كان شيخا مسنـا ، عدلا ، مـرضيا ، فقيها رحمه اللـه، و ذلك في عـاشر شهر صفر المظفر . و في ذلك اليوم أيضا تـوفي العفيف عرب بن عمر بن علي الشـافعي ، و دفنـا في مقبرة باب الصغير بعـد صلاة الظهـر ، حضرت دفنهما والصلاة عليهما .

و فيها : في نصف ربيـع الآخر توفي المعلم الذي كـان بمكتب جاروخ جوار المدرسـة العادليـة ، و كان يروي الثمانين لـلآجري عـن الحافظ أبي الطاهـر السلفي سماعا ، و قـرأها لابنـي فسمعها عليه بقـراءتي ، و كان شيخا ، أديبا ، شاعرا ، له شعر لابأس به ، رحمه الله .

و فيهـا : في الثالـث و العشرين مـن شهـر جمادى الأولى توفي المجـد سليمان بن سالم بن مفلح العدل الفقيه الشافعي ، و دفن بمقبرة الصوفية رحمه الله تعالى .

و فيها : وصل إلى الـديار المصرية شيخنا عـز الدين بن عبـد السلام، وحصل لـه من سلطانها الصـالح بن الكامـل قبول عظيم على مـا بلغنا، وتولى الخطابة و القضاء بمصر .

و فيها : تـوفى الشيخ أبو طـاهر إسماعيـل بن ظفر بـن أحمد النابلسي

بجبل قاسيون في رابع شوال ، و كان رحمه الله عنده سند عن اللبان عن أبي علي الحداد ؛ و عنده عن أبي سعيد الصفار ، عن الفراوي ، أ سمعت ولدي عليه من الطريقين من ثاني شوال، ثم توفي بعد الغد منه رحمه الله.

و فيها : توفي بالموصل الشمس بن الخباز النحوي الضرير في سابع رجب المرجب ، و الكمال بن يونس الفقيه في النصف من شعبان رحمهما الله ، و كانا فاضلي بلدهما في فنهما.

و فيها: توفي بدمشق عبد الواحد الصوفي الذي كان قسا راهبا بكنيسة مريم نحو سبعين سنة ، أسلم قبل موته بأيام ، ثم توفي شيخا كبيرا بعد أن أقام بخانقاة السميساطي أياما ، و دفن بمقابر الصوفية،وكانت له جنازة حفلة حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله.

و فيها : في يوم عرفة تولى قاضي القضاة بمصر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ؛ و جمع له بين الخطابة و القضاء ،و ذلك بعد وفاة القاضي شرف الدين الموقع ، ثم عزل نفسه مرتين و انقطع في بيته .

ثم دخلت

سنة أربعين و ستمائة

في خلافة المستنصر أبي جعفر المنصور بن الظاهر بن الناصر.

و سلطان دمشق الصالح اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب ،و بمصر أخيه الناصر داوود بن عيسى بن أبي بكر .

ففيها : في سابع عشر ربيع الأول توفيت الأتابكية زوجة الأشرف، واسمها : بركات خاتون ابنة عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي،و في ليلة وفاتها كان وقف تربتها و المدرسة بالجبل .

وفيها : توفي الشيخ الصالح عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن الحسن، يعرف بابن الدجاجية ،و يعرف جده بابن أبيه، توفي ليلة الأحد الخامس و العشرين من المحرم، أحد الرواة عن الحافظ أبي القاسم ابن عساكر محدث الشام،سمع منه و هو ابن خمس و نحوها، سمعت منه أنا وولدي محمد أشياء من تصانيف الحافظ أبي القاسم ومروياته بسماعه لها منه و لله الحمد . و في ثالث عشر صفر توفي كمال الدين بن أحمد بن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية بأرض غزة،و كان مقدم العساكر الصالحية يومئذ ، جاءنا خبره إلى دمشق

و في يوم الجمعة سادس عشر رجب سنة أربعين و ستمائة خطب بدمشق للإمام المستعصم بالله أحمد بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور، لوفاة أبيه ، و عقد له مجلس العزاء يومئذ رحمه الله .

و فيها توفي زين الدين أبو زكريا المالقي بمدينة غزة رحمه الله، و كان أديبا فاضلا ،و أسمعت عليه ولدي محمد صحيح مسلم .

و فيها : توفي يوم الجمعة سلخ رجب الشيخ الزكي أبو اسحاق إبراهيم بن الشيخ المسند أبي طاهر بركات بن ابراهيم الخشوعي القرشي، و دفن بعد صلاة الجمعة بمقبرة باب الفراديس على أبيه و جده، حضرت الصلاة عليه و شيعته إلى قبره رحمه الله ، و كان شيخا، مسندا صالحا ، و لم يخلف بعده من يروي عن الصائن بن أبي الحسن هبة الله ابن الحسن بإجازة،ولا من يروي عن أخيه الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن مثله في الكثرة . سمعت عليه أنا وولدي أبو الحزم محمد ، و أم الحسن فاطمة أشياء من آمالي الحافظ و غيرها ، و لله الحمد .

ثم دخلت

سنة إحدى و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها استولت التاتار لعنهم الله على بلاد الروم ، سهل الله عودها إلى المسلمين .

و فيها خطب بدمشق يوم الجمعة الرابع و العشرين من ربيع الأول للسلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ثم قطع ذلك من السنة المذكورة .

وفيها : في سابع عشر ربيع الآخر توفي الشمس بن المنجي و اسمه: أبو الفتوح عمر بن أسعد بن المنجي الحنبلي قاضي حران قديما ، و كان فقيها يدرس بالمدرسة السمسارية ، و تولى خدما ديوانية في الأيام المعظمية ، و كان يروي عن أبي المعالي بن صابر . و القاضي الشهرزوري، وابن أبي عصرون ، اسمعت عليه ولدي محمدا عنهم .

و فيها : في ثامن عشر ربيع الآخر توفي الشيخ أبو البركات ميمون الزموري المغربي الضرير ، و كان من عباد الله الصالحين ؛ فاضلا عالما بعلم الطريقة ، حسن المحاضرة ، و صلي عليه بجامع دمشق و دفن بجبل قاسيون شمالي مقبرة الشيخ عبد الصمد الدكالي في مغارة الدم، وتعرف تلك المقبرة بفقراء المغاربة ، حضرت الصلاة عليه رحمه الله .

وفيها: توفي العز بن المنجي أخو الشمس في ذي القعدة من السنة، ودفن بمدرسته بالجبل ، ففيها : في خامس عشر جمادى الأولى توفي الشيخ الحافظ تقي الدين أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن الأزهر

الصريفيني رحمه الله و دفن بجبل قاسيون ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى باب الفراديس ، و كان عالما بالحديث دينا ، متواضعا رحمه الله ، سمع عليه ابني محمد .

و فيها : توفيت الشيخة أم الفضل كريمة بنت عبد الوهاب في خامس عشر جمادى الآخرة . سمع عليها ابني محمد صحيح البخاري وغيره ، بقراءتي و قراءة غيري .

و فيها : في الحادي و العشرين من رجب توفي المخلص عبد الواحد ابن عبد الرحمن بن عبد الواحد بن هلال العدل الدمشقي بها ، و كان أحد أصحاب الحافظ أبي القاسم ، و توفي بجبل قاسيون سمع عليه ابني محمد أجزاء بقراءتي عليه و قراءة غيري .

و فيها : يوم الجمعة بعد الصلاة صبيحة عيد الأضحى قبض على أعوان القاضي الرفيع الجيلي الظلمة الأرجاس، و كبيرهم الموفق حسين ابن عمرو بن عبد الجبار الواسطي ، المعروف بابن الرواس لا رحمهم الله و سجنوا ثم عذبوا بالضرب ، و العصر ، و المصادرات، و لم يزل ابن الرواس في الحبس و العذاب إلى أن فقد في أواخر جمادى الأولى من سنة إثنتين و أربعين و ستمائة ، و بلغني أنه أخرج ليلا و خنق عند تل اليهود و النصارى و رمي ثم ، وفي يوم الجمعة ثامن عشر ذي الحجة تحقق صرف هذا القاضي الظالم و عزله ، ثم أخرج من داره و سجن بالمدرسة المقدمية بباب الفراديس ، ثم أخرج ليلا و ذهب به فسجن في مغارة افقه من نواحي البقاع ثم انقطع خبره، و ذكروا أنه توفي لا رحمه الله ، فمنهم من قال : ألقي من شاهق، و منهم من قال : خنق ، و في يوم الجمعة الآتي الخامس و العشرين من ذي القعدة قرىء منشور ولاية القضاء لمحيي الدين محمد بن علي بن يحيى القرشي بالجامع في الشباك الكمالي .

ثم دخلت

سنة اثنتين و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بالله

ففيها : تـوفي شيخ الشيوخ أبو محمـد عبد الله بن حمويـه رحمه الله في سادس صفر ،و دفن على أبيه في مقبرة الصوفية، حضرت دفنه و الصلاة عليه بجامـع دمشق و كانت لـه جنازة حفلة ، و كان رحمه اللـه سخيا ، متـواضعا ، عـالما ، فاضـلا ، دينا صحيـح الاعتقاد . سمـع الحافظ أبـا القاسـم بن عساكـر ، و الفقيه مسعود النيسـابوري و أبا الفـرج الثقفي، وأبا طاهر الخشوعي و غيرهم ، سمعـت عليه أنا وابني محمد كثيراوأجاز لنا جميع ما يرويه رحمه الله .

و فيها تحقق مـوت القاضي الظالم الوضيـع الملقب بالرفيـع ، و أعوانه على ما سبق ذكره .

و فيها : مات جماعة من أصحابنا و معارفنا منهم : الكمال مسعود بن أحمد الحوراني الفقيه الشـافعي ، تـوفي في خامـس جمادى الأولى ، و دفن في مقبرة الصوفية ، و بعده بيومين تـوفي الشمس محمد بن الجابي، و دفن بمقبرة الصوفية أيضا ،حضرت دفنهما و الصلاة عليهما رحمهما الله تعالى .

و في هذا الشهر مـن السنة المذكورة كسرت الأفرنج لعنهـم الله و من انضـم اليهم مـن منـافقي المسلمين كسرة عظيمـة مـن عسقلان و غـزة، ووغنـم منهـم أمـوالا عظيمـة، واسر مـن الفـرنـج خلـق مـن ملـوكهـم وكبرائهـم، وقتـل منهـم مقتلـة عظيمـة، و ذهـب بـرؤوس المقتلين والمأسوريـن إلى مصر، ووقع الـرعب في صاحـب دمشق فتهيـأ للحصار وخرب رباعا كثيرة حـول البلد ، و غرقت المساكن التـي على حافة بردى

بين جسري بابي تـوما و السلامـة بسبب خـراب جسر باب تومـا و سده فـرجع المـاء وارتفع وصـار بحرا، فـوقع مـاكـان على حـافته، والله المستعان .

قلـت : كانـت هذه الـوقعة بين عسكـر مصر و مقـدمه ركـن الديـن بيبرس الصالحي ، و بين عسكر الشـام و مقدمه المنصور صـاحب حمص و معهم افرنج الساحل يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الأولى .

وفيهـا : في نحـو النصـف من شعبـان تـوفي الجمال سليمان بـن عبـد الكريـم ابن اخت عبـد العزيز الشيبـاني ، و الشمس أحمد بن محمـد بن عمارة البرجي ، رحمهما الله .

و فيها : في خامس شهر رمضان توفي تـاج الدين أبو العباس أحمد بن شيخنا القـاضي شمس الـدين أبي نصر محمد بـن هبة اللـه بن الشيرازي رحمه الله ، و دفـن بالجبل ، و كان خيرا متـواضعا ، فاضلا ، أمينـا ثقة ، سمع جده هبة الله بن محمد بن جميـل ، و أبا عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن صدقة الحراني و غيرهما ،و أجاز له الحافظ أبو طاهر السلفي، قرأت لـولدي محمـد عليه أشيـاء من ذلـك ، فسمعها عليـه ، و حضرت الصلاة عليـه بجامع دمشـق ، صلى الإمام عليـه ؛ و على المؤذن المعروف بديك العـرش ، مؤذن بيت المقدس في ساعة واحـدة . و كان هذا المؤذن مسنا ، و ابتلي بمـرض طويـل رحمه الله ، و قبره بمقـابر الصـوفية . ومـا سمعه ابنـي محمد على الشيرازي المذكـور صحيح مسلـم ، بسماعه مـن الحراني ، عن أبي عبد اللـه الفراوي ، عن الفارسي ، عـن الجلودي ، عن ابراهيم ، عن مسلم .

ثم دخلت

سنة ثلاث و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر ، و مدينة دمشق يومئذ محاصرة ، ففي الثامن من المحرم ضويقت مضايقة شديدة، وقد اجتمع و استولى عليها عساكر عظيمة من المصريين والخوارزميةوغيرهم ، ففي تلك الليلة أحرق قصر حجاج ، و الشاغور ، واستولى الحريق على مساجد وخانات، و دور عظيمة ومن ذلك مسجد جراح خارج باب الصغير ، و كان جامعا تقام فيه الجمعات ، ثم نصبت على دمشق المجانيق و رميت به بين باب الجابية و الصغير ، ونصبت أيضا مجانيق داخل البلد ، و ترامى الفريقان ، و أمر بتخريب حارة العقيبة خارج باب الفراديس ، و باب السلامة ، و باب الفرج، وأحرق حكر السماق خارج باب النصر ، واشتد الغلاء ، و عظم البلاء وزادت أوقية الخبز على نصف درهم ، و بلغ التبن أن بيع كل أوقية بقرطاس ، ثم أحرقت العقيبة في أول ربيع الأول .

وفيها : في يوم الجمعة الرابع و العشرين من صفر توفي صاحبنا المحدث شرف الدين أحمد بن الجوهري رحمه الله ؛ و كان فاضلا، خيرا، متواضعا مفضلا ،مفيدا،حريصا على تحصيل المسموعات، رحل في طلب الحديث ، و سمع و حصل الأصول ، ثم توفي رحمه الله ، و دفن بالجبل صلينا عليه بجامع دمشق و شيعناه إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج لوجوود الحصار المذكور ، ثم توفي بعده في سادس شهر ربيع الأول القوام الأصبهاني ، و كان كاتبا ، فاضلا ،شاعرا، والمعين الأرموي، و كان شيخا ظريفا ، معمرا في ثامن ربيع الأول ، ثم توفي في ثالث عشر ربيع الأول المنتجب الهمذاني المقريء بالمدرسة الزنجبيلية رحمه الله وكان مقرئا مجودا، قرأ على الشيخ أبو الجود بمصر ، و انتفع بشيخنا أبي

الحسن في معرفة قصيدة الشاطبي ، ثم تعاطى شرح القصيدة فخاض بحرا عجز عن سباحته ، و جحد حق تعليم شيخنا له وإفادته، فالله يعفو عنا و عنه ، حضرت الصلاة عليه بجامع دمشق و شيعته إلى داخل باب الفرج، ولم يمكن الخروج معه لأجل حصار البلد ، ثم توفي في الثالث و العشرين منه التاج الأبهري الصوفي ،وكان من أهل الحديث ذو سماعات كثيرة و بخطه طباقات جمة ، و نسخ كثيرة من كتب الحديث والفقه أسمعت عليه ابني محمدا وله إجازة .

وفي ذلك اليوم مات الصفي القارىء إمام الجنائز ، و قبلهما بيوم توفي الناصح سالم قيم دار الحديث النورية رحمهم الله ، ثم توفي الشيخ حسن الصقلي القزاز ، و كان من المشهورين بالصلاح كل ذلك في ربيع الأول،

و توفي في ربيع الآخر سابع عشره الشيخ الفقيه كمال الدين أبو العباس أحمد بن كاتب الزماري رحمه الله ، و كان شيخا ، صالحا، فقيها، مشهورا ، من أصحابنا الشافعيين ، متضلعا في نقل وجوه المذهب و فهم معانيه . وهو أحد من قرأت المذهب عليه في صباي، وكان كثير الحج و الخير ، وقف جميع كتبه و فيها مصنفات جليلة تقبل الله منه ، و هو الذي ذكره شيخنا أبو الحسن في خطبة تفسيره و أثنى عليه و كان ملازم حلقة شيخنا وقت سماع التفسير ، و في أيام ختمات الطلبة رحمه الله .

و في يوم الاربعاء السادس والعشرين من ربيع الآخر توفي الشيخ الفقيه الامام مفتي الشام تقي الدين أبو عمرو عثمان بن الصلاح رحمه الله بدار الحديث الأشرفية ، و حمل على الأصابع إلى الجامع فصلي عليه بعد صلاة الظهر ، و كانت على جنازته هيبة ووقار ، و جمع متوفر، رقة شديدة و إخبات و خشوع ، ثم خرج به إلى باب الفرج ، و رجع الناس بسبب الحصار ، و خرج معه نفر دون العشرة إلى مقابر الصوفية فدفن

بها رحمه الله ، و انضاف إليهم بعد ذلك جماعة حضرت الصلاة عليه بالجامع و شيعته إلى باب الفرج . و منه استفدت علمي الحديث والفقه صغيرا و كبيرا ، و سمع عليه ابني محمد جملة من تصانيفه ومعظم السنن الكبير للبيهقي ، و غير ذلك .

و بعده بيومين توفي التقي أحمد بن العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي ، بجبل قاسيون . و توفي قبله بنحو من شهرين ابن عمه أبو سليمان عبد الرحمن بن عبد الغني ، و كانا من أئمة الحنابلة بدمشق وبالجبل ، و كان أبو سليمان من الصالحين ، و في جمادى الأولى توفي شرف الدين بن قريش بدمشق ، و القاضي الأشرف بن الفاضل بمصر بينهما سبعة أيام ، وفي ثالث جمادى الأولى لما فتحت دمشق توفي العز محمد بن تاج بن الخيشي شاب من المشتغلين بالعلم المحصلين له المجتهدين فيه من أصحاب شيخنا أبي الحسن وأعزهم عليه رحمه الله ، شهدت الصلاة عليهما و شيعتهما إلى داخل باب الفرج ، و ذهب به إلى الجبل ، و بابن عساكر إلى مقبرة جده بباب الصغير .

وفي خامسه يوم الجمعة توفي الشيخ المسند تاج الدين أبو الحسن محمد بن أبي جعفر إمام الكلاسة ، كان مسند وقته ذو سماعات جمة صحيحة ، و أصول جليلة . و كان متواضعا خيرا دينا رحمه الله .

سمعت عليه أنا وابني محمد كثيرا ، سمع من عبد المنعم الفراوي، وأبي البركات الخشوعي ، و أبي الفرج الثقفي . و الحافظ أبي محمد، وعبد الوهاب بن سكينة ، و ابن طبرزد ، و حنبل ، و القاضي أبي القاسم . وأبي اليمن الكندي و غيرهم ، حضرت الصلاة عليه بالجامع بعد صلاة الجمعة ، و شيعته إلى باب الفرج ، و كانت له جنازة حفلة، وحمل على الأيدي ، و دفن بجبل قاسيون عند أبيه و أخيه .وفي ثامنة تحقق الصلح وزال الحصر عن البلد ورحل ليلتئذ عن دمشق سلطانها

الصالح إسماعيل بن العادل بن أبي بكر بن أيوب، وصاحبه المنصور إبراهيم بن أسد الدين إلى بعلبك و حمص ، و دخل البلد من الغد في تاسع الشهر نائب صاحب مصر و هو الصاحب معين الدين حسين بن شيخ الشيوخ صدر الدين ، و نزل في دار سامة و هي الدار المعظمية الناصرية . و زال الخوف و الظلم عن البلد و المصادرات و الوجل، جعله الله فتحا مباركا برحمته .

و في يوم الجمعة آخر جمعة في الشهر توفي ولدي أبو الحزم محمد جمعني الله و إياه في الجنة ، و دفنته عند امه بمقبرة ابن زويزان المجاورة لمقبرة الصوفية على حافة الطريق إليها رحمهما الله و إيانا ، وأنا كنت قابله وغاسله وبلغ من العمر ثماني سنين و نصفا ، و سمع من كتب الحديث وأجزائه و من سائر العلوم شيئا كثيرا على جملة من المشايخ نحو مائة وأربعين شيخا ، ثم توفيت أخته زينب بعده بأربعة أيام، وفي ثالث جمادى الآخرة توفي الشهاب محمد بن علي بن منصور اليمني المعروف بابن الحجازي رحمه الله ، و كان من فضلاء الشبان . هو وأبوه من أصحاب شيخنا أبي الحسن المختصين به ، و دفن بجبل قاسيون، ولم أشهده لأني كنت مريضا

و فيها : ليلة الأحد ثاني عشر جمادى الآخرة توفي شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي رحمه الله علامة زمانه ، و شيخ عصره و أوانه بمنزله بالتربة الصالحية، و صلي عليه بعد الظهر بجامع دمشق ، ثم خرج بجنازته بجمع متوفر إلى جبل قاسيون ، فدفن بتربته التي هي في ناحية تربة بني صصرى خلف دار ابن الهادي ، حضرت الصلاة عليه مرتين بالجامع ، و خارج باب الفرج ، و شيعته إلى سوق الغنم ، ثم رجعت لضعف كان من أثر مرض قريب العهد ، و كان يوما مطيرا، وفي الأرض وحل كثير ، و كان على جنازته هيبة ، و جلالة ، و رقة، وإخبات ، و ختم بموته موت مشايخ الشام يومئذ ، و فقد الناس بموته

علما كثيرا، و منه استفدت علوما جمة ، كالقراءات و التفسير ، وعلوم فنون العربية ، و صحبته من شعبان سنة أربع عشرة ، و مات وهو عني راض، و الحمد لله على ذلك رحمه الله و جمع بيننا و بينه في جنته آمين .

و في يوم الأربعاء خامس جمادى الآخرة توفي الفقيه زين الدين يوسف بن ابراهيم بن يوسف الكردي ،و الشيخ أيوب المعروف بالمراوحي، والعماد علي بن الحجة الحنفي ، و الصدر ابراهيم بن الليث وغيرهم،وصليناعلى الجميع جملة بعد الظهر بالجامع، وشيعت جنازة الزين الكردي إلى نحو باب الصغير رحمهم الله، ثم توفي خطيب الجبل شرف الدين عبد الله بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن قدامة، و الضياء محمد بن عبد الواحد ، و الضياء محاسن ، والسيف أحمد بن عيسى بن شيخنا الموفق عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وغيرهم من مشايخ الجبل . توفي الضياء محمد يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة من السنة ، و هو : محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي، وفي ليلة ثامن عشر شعبان توفي الفخر محمد بن عمرو بن عبد الكريم الحميري ،عرف بابن المالكي الساكن بالمنارة الشرقية في بيت أبي جعفر ، و دفن من الغد في مقبرة الصوفية رحمه الله .

و فيها: توفي النجم بن سلام ، و كان متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس في سنة اثنتي عشرة و ستمائة ، و دام عليه و له احسان و خير ، و صدقة و تعصب ، و ضيافة ، و في شهر شعبان أيضا من سنة ثلاث و أربعين و ستمائة توفيت الصاحبة ربيعة خاتون ابنة نحم الدين أيوب ، أخت صلاح الدين و العادل و غيرهما من الملوك، وعمه الكامل ، و الأشرف ؛ و المعظم و غيرهم من الملوك . زوج مظفر الدين صاحب إربل رحمهم الله ، و دفنت بتربتها بالجبل . و توفي فيه أيضا الأمير سيف الدين قليج و دفن بمدرسته التي وقفها بمسكنه بدار الفلوس.

و في السابع و العشرين من شهر شعبان توفي الفقيه الشيخ الصالح علاء الدين بن الكردي عمر بن أبي بكر بن جعفر ، و كان جاري بالمدرسة العادلية ، و دفن بمقابر ابن زويزان حضرت دفنه و الصلاة عليه رحمه الله، و في ليلة الأحد الثاني و العشرين من شهر رمضان توفي بدمشق الصاحب معين الدين ابن شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه، و كان نائب السلطنة بها ، و هو الذي فتحها للملك الصالح أيوب بن الملك الكامل ، و أخذها من عمه اسماعيل بن أبي بكر بن أيوب صاحب بعلبك ، و صلى عليه بجامع دمشق جمال الدين بن محيي الدين ابن الجوزي ، و دفن بالجبل عند أخيه عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ، رحمه الله ، و مولد معين الدين في سنة ثمان و ثمانين وخمسمائة، وفي يوم الجمعة العشرين من رمضان توفي شرف الدين محمد بن القاضي شرف الدين أبي طالب عبد الله بن زين القضاة ، ودفن بالجيل، وفي ثاني شهر شوال توفي الأمير نجم الدين القيمري عمر بن ناصر الدين، ودفن بالجبل .

و فيها : اشتد الغلاء بسبب قطع الخوارزمية الطرقات ، ففي ثامن عشر شوال بلغت غرارة القمح ستمائة درهم ناصرية نصفها بثلاثمائة درهم ، و بيع الخبز كل رطل بثلاثة دراهم أو بأربعة دراهم على تفاوت الأخبار ، والله يكشف هذا الضر برحمته ، و كان ذلك في تاسع شهر آذار و بقيت الصعاليك مرميين في الطرقات ، و كانوا يطلبون لقمة ، ثم صاروا يطلبون فلسا يشترون به نخالة يبلونها و يأكلونها كما تطعم الدجاج ؛ و شاهدت ذلك بعيني ، ثم اشتد الغلاء زيادة على ذلك فبلغ في آخر شهر شوال المذكور كل غرارة حنطة بمائة دينار صورية، ثم ناصرية ، ثم سمعت أنه بيع عشرة غرائر بعشرة آلاف درهم وكتب بها وثيقة على المشتري إلى أجل شهرين ، و اشتريت أنا الخبز كل رطل بأربعة دراهم غير مرة ، ثم تفاقم الأمر في حادي عشر ذي القعدة فبيع الخبز الأسود كل أوقيتين بدرهم ، و خبز الشعير كل أوقتين و نصف

بدرهم، و بلغت الغرارة في ثاني عشر ذي القعدة ألفا و مائتي درهم وخمسين درهما فضة ناصرية ، و بيع الدقيق كل أوقية بدرهم، كل رطل بنحو عشرة دراهم، وبيع الشعير كل كيل خمسين درهما الغرارة بستمائة درهم ، و الزبيب كل أوقيتين بدرهم ، ثم بيع أوقية و نصف بدرهم، وكذا الدبس بلغت الحلاوة الجوزية من الدبس كل أوقية بدرهم، وسمعت من ينادي عليها و قد نزل السعر بباب الجامع الغربي من باب البريد يقول أرخص الله أسعار المسلمين كل أوقية بستة عشر قرطاسا، فقال بعض السامعين : كنا نأخذها بعشرة فلوس الوقية ، و اليوم نفرح كيف وصلت إلى ستة عشر قرطاسا ،و بيع الباقلا الأخضر كل رطل بدرهم و ربع ، و الرز باللبن ثلاث أواق و نصف درهم ، و الأرز اليابس كل أوقيتين ، و الفحم الردي كل رطل بستة دراهم ، ولم تزل الأسعار في اشتداد و ارتفاع إلى أن بيع مد الحنطة بعشرين درهما ونحوها، و بلغت الغرارة ألفا و خمسمائة درهم، و بيع الخبز كل أوقيتين إلا ربع بدرهم، والرطل بسبعة دراهم يوم عيد النحر و قبله ؛ ثم إن الله تعالى نفس عن الناس بنزول السعر من بعد عيد الأضحى، و لم يزل يأخذ في النزول إلى أن بيع الخبز آخر السنة كل رطل بدرهمين ، واللحم كذلك، وفي سلخ المحرم بيع كل رطل و ثلث بدرهم ، و في جمادى الآخرة رطل ونصف بدرهم.

ثم دخلت

سنة أربع و أربعين و ستمائة

أولها يوم الجمعة كسرت الخوارزمية أشد كسرة و قتلت ملوكهم ، وسبيت نساؤهم ، وغنمت أموالهم بين أرض بعلبك وحمص، و كسرهم الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، و معه جيوش حلب و حماة و غيرها من البلاد ، و جاءنا الخبر بذلك يوم السبت ثاني الشهر إلى دمشق ، فبيع الخبز كل رطل بدرهم و نصف ، والحمد لله على هذه النعمة ، و نسأله المزيد بفضله، ثم تسلمت قلعة بعلبك من نواب الصالح اسماعيل ، ثم تسلمت قلعة بصرى منهم . وممن قتل في تلك المعركة بركة خان مقدم الخوارزمية ، وسلطانهم وحمل رأسه إلى حلب .

و في حادي عشر صفر توفي الملك المنصور ابراهيم بن المجاهد صاحب حمص بالبستان الأشرفي بالنيرب ظاهر دمشق و نقل إلى حمص . و قبله بأيام توفي الضياء محمد بن حسان بن رافع العامري بقصر حجاج، وكانت له سماعات كثيرة بالحديث ، سمع الخشوعي ، والحافظ أبا محمد، و أبا اليمن الكندي، و القاضي أبا القاسم، وأبا حفص بن طبرزد، وحنبلا و غيرهم ، و سمع شيء من حديثه رحمه الله تعالى ثم توفي الركن بن سلطان الحنفي ، والقاضي شرف الدين الحنفي الحوراني ، و الكمال ابراهيم بن البانياسي، وغيرهم في العشر الأسط من صفر

و في ثامن عشر ربيع الأول توفي العز الإربلي عبد العزيز بن عثمان بن أبي طاهر إمام دار الحديث النورية بدمشق بقرية جوبر ، و حمل إلى مقابر الصوفية ، و كان شيخا حسنا مسنا مكثرا عن أبي طاهر الخشوعي، و أبي محمد ، و أبي اليمن الكندي ، و أبي حفص بن طبرزد،

و أبي القاسم القاضي، و فاطمة بنت سعد الخير و غيرهم، اسمعت عليه ابني محمداً كثيرا من الكتب و الأجزاء .

و في ربيع الآخر توفي الفقيه الحنفي المغروف بالعز عرفة، مدرس الصادرية ، و المجد بن البعلبكي ، و الجمال بن البلان، و في أول جمادى الآخرة توفي الحكيم سعد الدين الطبيب ، و بعده بثلاثة أيام توفي البدر العلائي الأشرفي الخادم ، و في الخامس و العشرين من جمادى الآخرة توفي الفقيه الإمام تقي الدين محمد بن محمود بن عبد المنعم المراتبي الحنبلي رحمه الله و دفن بالجبل ، حضرت الصلاة عليه ، و شيعته إلى خارج باب الفرج ؛ و كان عالما ؛ فاضلا ، ذا فنون و لي به صحبة قديمة ، و بعده لم يبق في مذهب أحمد مثله بدمشق .

وفي رجب ولد بمنزلي عبد العزيز بن أحمد بن عبد الجبار الزيني أخو ابنتي من أمها جعله الله موفقا سعيدا ، و في أول شعبان توفي الضياء عبد الرحمن المالكي العمادي الذي جلس مكان الشيخ أبي عمر ، و في حلقته بالجامع ، و في زاوية المالكية و مدرستهم رحمه الله ، و كان كريما شاعرا ، و قبله الأمير عماد الدين داوود بن موسك بن جكر ، و جاءنا الخبر بوفاة الفقيه تاج الدين اسماعيل بن جهبل رحمه الله بحلب ، وكان فقيها دينا كريما سليم الصدر ، و توفي في ثامن عشر شعبان الشيخ اسماعيل الكوراني المقيم بمقصورة ابن سنان الحنفية ، و جمال الدين محمد القلعي ، و المخلص أبو بكر بن حماد الحنبلي ، و في ذي القعدة توفي الناسخ أحمد الصيداوي المشتغل بعلوم الفقه و الحديث و الرقائق .

و في تاسع عشر ذي القعدة يوم الخميس سابع ساعة فيه دخل دمشق صاحبها الصالح نجم الدين أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب،و كان يوما عظيما بكثرة الخلق و الزينة ، و نزل عندنا بالمدرسة العادلية الشيخ الفاضل الأمير ضياء الدين أبو الحسين محمد بن اسماعيل

ابن عبد الجبار ، يعرف بابـن أبي الحجاج المقدسي ؛ و صهره الأمير العالم الفاضـل شمس الدين بـن الجناب فأقـام بها خمسة عشر يوما ، ثـم رحل إلى بعلبـك فكشفهـا ، ثـم رجـع و مضى نحـو صرخـد و تسلمهـا مـن صاحبهـا عز الـدين أيبك المعظمـي،و رحل إلى بـلاد بانيـاس و تسلم حصن الصبيبة مـن الملك السعيد بن العـزيز بن العادل و هـو ابن عم السلطان وفي خدمتـه، ثم تسلم حصن الصلت من ابـن عمه داوود بن عيسى بـن أبي بكر بن أيـوب ، و فرق بـدمشق نحو تسعين ألـف درهم على الفقراء ، فخـان فيها المفرقـون ، فنظمت فيهم قصيـدة نحو اربعمائة بيت في شرح حالهم فيها .

ثم دخلت

سنة خمس و أربعين و ستمائة

أولها يوم الاربعاء ، فرجع السلطان الصالح أيوب إلى مصر ، و أبقى العسكر بالساحل محاصرين لبلاد الفرنج خذلهم الله تعالى بعسقلان وطبرية ، فجاء الخبر بفتح طبرية في عاشر صفر من هذه السنة ، و جاء الخبر بفتح عسقلان في أواخر جمادى الآخرة .

وفيها : توفى النظام عبد الله بن زين الأمناء بن عساكر ، و في العام قبله توفى أخوه الركن عبد اللطيف و كان متزهدا ذا وسواس.

و فيها : عزل الخطيب عماد الدين داوود بن خطيب بيت الأبار من خطابة جامع دمشق و إمامته و من التدريس بزاويته الغربية، وولي ذلك القاضي عماد الدين عبد الكريم بن الحرستاني ، و ذلك في أواخر رجب، وفي سلخه توفي المجد بن نظيف ، و في شعبان توفي الشمس ابن هلال، وفي رمضان توفي الكمال علي بن يعقوب الدولبي القاضي الشافعي، وكان فقيها أديبا ، تولى القضاء ببعلبك ، ثم بصرخد ثم برزة و بها توفي.
قلت : وجدت بخط الدولبي المذكور أنه علي بن يعقوب بن اسحاق ابن عبد الله بن أبي الحسن - هو كردي - الجوزقاني، رحمه الله تعالى ، وكان شيخا في الفقه .

و في رمضان توفي الشيخ علي المعروف بالحريري ، المقيم بقرية بصر في زاويته ،و كان يتردد إلى دمشق ، و تبعه طائفة من الفقراء و هم المعروفون بالحريرية ، أصحاب الزي المنافي للشريعة ، و باطنهم شر من ظاهرهم إلا من رجع إلى الله منهم، و كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشزيعة و التهاون بها من إظهار شعار أهل الفسق والعصيان شيء كثير ، و انفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء

دمشق، و صاروا على زي أصحابه ، و تبعوه بسبب أنه كان خليع العذار ويجمع مجلسه الغناء الدائم ، و الرقص و المردان، وترك الاحتجار على أحد فيما يفعله ، وترك الصلوات ، وكثرة النفقات فأضل خلقا كثيرا وأفسد جمعا غفيرا ، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين ، ثم أراح الله منه.

ثم دخلت

سنة ست و أربعين و ستمائة

ففيها : استولى صاحب حلب على حمص .

و في يوم الجمعة سادس عشر ربيع الآخر صلب مملوك تركي صبي بالغ ، كان لبعض الأمراء الصالحية النجمية يدعي السقسقيني زعموا أنه قتل سيده لأمر ما ، فصلب على حافة نهر بردى تحت القلعة في آخر سوق الدواب ، و جعل وجهه مقابل الشرق ، و سمرت يداه، وعضداه، و رجلاه ،و بقي من ظهر يوم الجمعة إلى ظهر يوم الأحد ، ثم مات، وكان يوصف بشجاعة ، و شهامة ، و دين و أنه غزا بعسقلان و قتل جماعة من الفرنج ، و قتل أسدا على صغر سنه و كان منه في صلبه عجائب ، فمن ذلك أنه جاد بنفسه للصلب غير ممتنع ولا جازع، بل مد يديه فسمرتا ؛ ثم سمرت رجلاه و هو ينظر لم يتأوه و لم يتغير وجهه، ولا حرك شيئا من أعضائه ، أخبرني من شاهد ذلك منه جماعة، وبقي إلى أن مات صابرا ساكنا لم يئن ؛ و لم يزد على نظره إلى رجليه وجانبيه ، تارة يمينا و تارة شمالا ، و تارة ينظر إلى الناس . قيل أنه استسقى ماء فلم يسقى؛ وتألمت قلوب من عندهم رحمة و شفقة على خلق الله تعالى من أنه صبي صغير ، و قد ابتلي بمثل هذا البلاء، و المياه تتدفق بجوانبه ، و هو ينظر إليها ، و يتحسر على قطرة منها ، و هو صابر على ذلك فسبحان من له الأمر والحكم ، و أخبرت أنه رؤيت له منامات صالحة و نور غشاه قبل موته ، و أن شكواه للعطش كان في أول يوم ثم سكن ذلك ، فقواه الله تعالى وثبته و صبره ، وأخبرني من سمعه يقول في اليوم الثاني : سقيت البارحة ما أذهب عني العطش، ثم لم يطلب الماء حتى مات ، و صار يبصق بصقة رجل ريان الكبد، حذف بها بعيدا ، و بقي بعد موته معلقا تمام يوم الأحد و أنزل ضحوة يوم

الاثنين من الغد ، رأيته اتفاقا و أنا مار إلى المدرسة الحسامية حالة انزاله، فشاهدته و قد اسودت أعضاؤه ، وغيرت محاسنه و كثر الترحم والدعاء له . و لعله كان شهيدا رحمه الله ، فإني أخبرت أنه دافع عن نفسه أمرا لم يرض وقوعه به و الله يغفر لنا أجمعين، و منها : أنه أسرع إليه الموت تخفيفا من الله تعالى عليه ، فانه بقي يومين و ليلتين. وأخبرت أن جماعة من الرجال جرى لهم مثل هذا الصلب والتسمير وأن المنية تأخرت عنهم أياما زيادة في عذابهم ، و كان قد أصابه في اليوم الثاني اختلال فلم يبق يحس بالألم و العطش ، و لم ينتظم كلامه بل صدرت منه ألفاظ دالة عل اختلاله ، خفف الله تعالى بذلك عنه ، قد كان يغفى أحيانا، ثم ينتبه مرعوبا لشدة الألم فتنقطع لذلك قلوب الناظرين إليه ، غير أنه يذكر الله تعالى .

و أخبرت أن بعض الموكلين به سأله عن حاله في غداة يوم الأحد أو السبت، و كان جوابه أن قال :طيب مع الله ، و بلغني لما سمر لم يسمع منه سوى كلمة واحدة ، و ذلك أن الذي سمره لما وضع المسمار في العضد صادف العظم ، فقال له : يا فتى تجنب العظم، وبلغني ان الذي سمره توفي في ذلك اليوم أو الذي بعده ، و هذا من عجائب ما اتفق ، فأخبر الصبي بذلك إرادة اعلامه ان الله تعالى جازاه بفعله. فقال الصبي و هو في تلك الشدة : هو في حل لا ذنب له ، لكن الذنب لمن أمره بذلك، و كان رحمة الله من أجل الصبيان و أحسنهم وجها وأطولهم شعرا، قد كان ثمنه ألوفا من الدراهم ، و كان في قتله مكشوف الرأس و الذؤابة من شعره مسترسلة خلفه ، و لعبت به الرياح فأدارتها إلى صدره فبقي يتناولها يولع بها و يتشاغل بالعبث بها ، و بلغني أنه قال: لي يومان ما صليت كالمتأسف على ما فاته من الصلاة ، و بعضهم قال يوم علقوه كان صائما، و أخبرني من أثق به أنه سمعه يلتمس من الناظرين إليه أن يبعدوا عنه ليريق الماء ففعلوا فأراقه ، و كانت له نفس

أبية ، و قوة شديدة، أخبرني جماعة أنه كان يحرك رجليه و هما مسمرتان، فلم يزل يولع بتحريكهما إلى ان اتسع نخش المسمارين عليهما و صار يديرهما بمساميرهما لولا شدة تعلق المسامير بالخشب لقلعهما البتة ومما قيل فيه :

ومتفرد من فوق أعواد حتفه
يجود بنفس صانها خوف ربه
تسمرت الأعضاء منه فلم يطق
سجودا فأومأ للسجود بقلبه
تمكنت الآلام منه مسمرا
كئيبا وكان الموت أيسر خطبه
يرى واحدا والناس من حوله جذعة
وعطشان والأمواه تجري بتحته
فيا حسرة منه على شرب قطرا
لقد طار ذياك الشراب بلبه
وعريان إلا في غلالة حسنه
ومكشوف رأس سائبات برحبه
تجول رياح الجو فيه وتعصف السـ
ـوافي عليه كل تترب بقربه
وتشرق شمس الصيف من حر وجهه
لقد زال ذاك الحسن مذ أشرقت به
مغيرة تلك المحاسن اذ غدا
أحق بها منها فنادت بحربه
فيالك ممنوعا من الماء ضلة
تفتت الأكباد من عظم كربه
ويالك مصلوبا بظلم وقسوة
تقطعت الأحشاء من سوء صلبه
ويبرد في الليل البهيم فيشتكي
نهارا فلا يسلى المقرب بذنبه

فيـــا عجبـــا ممـــن أشـــار بصلبـــه
ألا اعجـــب و أخبر عـــن قســـاوة قلبـــه

صبـــي صغير فـــائق الحســـن نـــاســـك
شجـــاع لـــه الاقـــدام في يـــوم حـــربـــه
صبـــور على هـــذي الشـــدائد كلهـــا
إلى أن أتـــاه الموت قـــاض لنحبـــه

و في سنة ست و أربعين و ستمائة سقطت قنطرة عظيمة رومية، كانت على علو سوق الرقيق بالسوق الكبير، فانهدم بسببها حوانيت ودور كثيرة كانت عليها و متصلة بها وقعت نهارا، و في ليلة الأحد الخامس والعشرين من رجب وقع الحريق في المئذنة الشرقية بجامع دمشق فأحرق أعلاها و جميع ما فيها من البيوت و المطلع جميعه ، فإنه كان سقالات من خشب، و سلم الجامع بفضل الله تعالى و رحمته، وبعده بأيام يسيرة قدم السلطان الصالح أيوب بن الكامل مدينة دمشق فأقام بها و جهز العساكر إلى حمص .

و في شعبان توفي القاضي عز الدين محمد بن أبي الكرم الحنفي السخاوي ، و كان نائبا في الحكم زمن الجمال المصري قاضي القضاة إلى أن مات . و في الخامس من شهر رمضان توفي بمصر الأفضل الخوبجي قاضي قضاة مصر ، و كان حكيما منطقيا ، و كان الحديث عنه في مدة ولايته القضاء حسنا ، سمعت الشيخ ابن أبي الفضل و غيره يثني عليه في ذلك ، رحمه الله . و جاءنا الخبر في ذي القعدة أن الشيخ أبا عمرو عثمان بن الحاجب رحمه الله توفي بالاسكندرية في شعبان ،.فساء ذلك من سمعه من البرية فإنه رحمه الله كان ركنا من أركان الدين في العلم والعمل ، بارعا في العلوم الأصولية و تحقيق علم العربية ، متقنا لمذهب مالك بن أنس رحمه الله ، و كان من أذكى الأمة قريحة ، و كان ثقة حجة متواضعا ، عفيفا ، كثير الحياء منصفا ، محبا للعلم و أهله ناشرا

له، محتملا للأذى ، صبورا على البلوى . قدم دمشق مرارا آخرها سنة سبع عشرة ، فأقام بها مدرسا للمالكية ، و شيخا للمستفيدين عليه في علمي القراءات والعربية ، ثم خرج هو و الشيخ ابن عبد السلام بسبب تغير الوقت عليهما فسكنا مصر ، و كان خروجهما من دمشق سنة ثمان و عشرين و ستمائة ، و أخبرني صهره الكمال أحمد بن سليمان أنه دفن خارج الاسكندرية في المقبرة التي بين المنارة ، قرب قبر الشيخ ابن أبي شامة رحمه الله .

ثم دخلت

سنة سبع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الصالح أيوب بن الكامل مقيم بها ، قدم إليها في أول شعبان من سنة ست فأقام بها خمسة أشهر ورحل منها يوم الاثنين رابع المحرم طالبا الديار المصرية، و أمر ببناء المنارة الشرقية بالجامع ، و هي التي احترقت فعمرت على ما هي عليه الآن، وفي ذلك العام وصلت الفرنج خذلهم الله تعالى إليها في البحر ونزلوا على ساحلها من جهة بر دمياط ، و استشهد من المسلمين جماعة منهم النجم ابن شيخ الاسلام ، و دخل الأمير جمال الدين موسى بن يغمور دمشق نائبا للسلطنة في عاشر ربيع الأول منها، و نزل بدرب الشعارين ووصل الخبر بإخلاء دمياط من المسلمين و دخول الفرنج خذلهم الله إليها في البحر واستيلائهم على ما كان فيها من المؤونة والاقامة . و جرت وقعة عظيمة هلك فيها داوية الفرنج ؛ ثم ورد كتاب من مصر إلى بعض أصحابنا تاريخه حادي عشر ربيع الأول قرأت فيه : وصل الفرنج في العشرين من صفر، نزلوا في الحادي و العشرين إلى البر، وفي الثاني و العشرين أخليت دمياط، و دخلها الفرنج و هم فيها إلى الآن.

و في ربيع الآخر توفي العدل صفي الدين عمر بن محمد بن عبد الوهاب يعرف بابن البرادعي ، و كان أحد من يروي عن الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله ، و توفي فيه أيضا الشيخ اسماعيل مقدم الخدام النبوية ، و جاءنا الخبر بوفاة ابن أمية العبدري بالقاهرة رحمه الله، وفي خامس جمادى الأولى توفي بدمشق الشريف عبد الصمد الحجازي الزاهد المقيم بالمسجد الذي بين القصاعين و الفسقار (١٢٧) رحمه الله وشهد جنازته خلق كثير ، و حمل على أيدي الرجال و أصابعهم، وكان

على طوية حسنة . حضرت الصلاة عليه بعد الظهر بالجامع و شيعته إلى المقبرة بين باب الجابية و باب الصغير رحمه الله، وعبر بسببه الأمير جمال الدين بباب البريد ، و شاهد ما أحدث من الحوانيت بطريق المسلمين في رحبة الجامع ، فأمر بإزالته و الاقتصار على الصفين المجاورين للحائطين من الجانبين ، و كان قد أزيل ذلك مرة أخرى في زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، ثم رد بعد ، ثم أزيل هذا الوقت المذكور و الله تعالى يجري الخير على يد من يشاء من عباده .

و فيها : شرع في بناء المسجد خارج دمشق على نهر يزيد عند جسر ابن البعلبكي المسامت للجسر الأبيض ، و في ليلة النصف من شعبان من هذه السنة توفي بمصر السلطان الملك الصالح أيوب بن محمد بن أبي بكر بن أيوب و أخفي بها ، و أرسل إلى ولده المقيم بحصن كيفا و هو الملك المعظم توران شاه بن أيوب فتنكر وقدم مع النجابين على زيهم وعبر على البلاد ، و لم يزل ملوك الأطراف حوله حتى وصل عانة وعدا الفرات ، و دخل البرية ، و دخل دمشق يوم الثلاثاء التاسع و العشرين من رمضان ، فنزل بالقلعة و أقام بها و أحسن إلى أهلها، ثم سافر إلى مصر يوم الاثنين في السادس و العشرين من شوال فوصل المنصورة ثامن عشر ذي القعدة ، و بها عساكر المسلمين سحرا في قبالة الفرنج الذين استولوا على دمياط ، و قبل وصول السلطان بأيام ركب الفرنج وحملوا على المسلمين سحرا على غرة فدهموهم في بيوتهم و خيامهم وتفرقوا في أزقة المنصورة و بين بيوتها ، و أيقظ الله تعالى المسلمين فاجتمعوا عليهم فقتل منهم مقتلة عظيمة منها ألف و خمسمائة فارس، ولم يفقد من المسلمين المعروفين سوى ثلاثين نفسا.

و فيها : قتل فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ و هو آخر أخوته موتا، وقتل أيضا صاحبنا الشيخ الفاضل ضياء الدين محمد بن أبي الحجاج صاحب ديوان الجيش رحمه الله ختم الله له بالحسنى، وهي

الشهادة على ما كان فيه من فضل و تواضع، و لم ألق أحدا يعرف علم التاريخ مثله ، و حصل كتبا عظيمة و كانت له همة عظيمة في تحصيل الكتب ، و الفوائد و الفضائل إلى آخر عمره رحمه الله ، و قدم دمشق مرات في زمان شبيبته و حياة والده ، و في زمان شيخوخته ، و كان قدم بغداد و سمع العلامة تاج الدين الكندي ، و أبا حفص عمر بن طبرزد، والقاضي أبا القا سم الحرستاني و غيرهم و أنشدني لنفسه و لغيره .

ثم دخلت

سنة ثمان و أربعين و ستمائة

ففي ثاني المحرم،و هو يوم الأربعاء كسر السلطان المعظم توران شاه ابن الصالح بن الكامل الفرنج الذين كانوا استولوا على دمياط ، وحاصروه با لمنصورة كسرة عظيمة قتل فيها و أسر قريب من ثلاثين ألفا و أسر ملك الفرنسيس ، و أخوه و جماعة من خواصه كانوا اختفوا في منية عبد الله من ناحية شار مساح فأخذوا برقابهم ، و في سادس عشر المحرم وصل إلى دمشق غفارة الملك فرنسيس المأسور أرسلها السلطان المعظم إلى نائبه بدمشق الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، فلبسها و رأيتها عليه و هي أشكر لاط أحمر ، تحته فرو سنجاب ، و فيها بكلة ذهب ، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن اسرائيل مقطعات ثلاثا ارتجالا ، كل مقطعة بيتين في مدح السلطان و الأمير أحدهما :

إن غفارة الفرنسيس التي
جاءت حباء لسيد الأمراء
بياض القرطاس في اللون لكن
صبغتها سيوفنا بدماء

و الثانية مخاطبة للأمير :

يا واحد العصر الذي لم يزل
يحوز في نيل المعالي المدى
لازالت في عز و في رفعة
تلبس أسلاب ملوك العدى

و الثالثة كتبها الأمير مقدمة كتاب إلى السطان:

أسيد أملاك الزمان بأسرهم
تنجزت من نصر الإله وعوده

فـــلا زال مـــولانـــا يبيـــح حمى العـــدى
ويلبـــس أســـلاب الملـــوك عبيـــده

و في العشرين مـن المحرم دخل الناس كنيسـة مريم بفـرحة و سرور، ومعهم مغـاني و مطربون فـرحا بما جرى و هموا بهدم الكنيسـة ، و بلغني أن النصارى ببعلبـك سودوا و سخمـوا وجوه الصـور في كنيستهم حـزنا على ما جـرى على الفرنـج ، فعلم الـوالي فجناهـم جنايـة شديـدة، وأمر اليهود بصفعهم و ضربهم و إهانتهم .

وفي صفـر سنة ثمان وأربعين وستمائة وصـل الخبر بقتـل المعظم تـوران شاه بن الصالـح أيوب بن الكامل بن العادل في دهليـز الخيمة، بعد مده السماط ضرب بسيف فانهزم ودخـل برج الخشب فأحرق، فـرمى نفسه الى ناحية النيـل فأدرك وقطع ثم بقريـة فارسكور، وكان ذلـك من غلمان ابيه البحـرية واستبـدوا بـالامر بعـده، وامـروا عليهم أم ولـد لأبيـه الصالـح، وأخبرني من شاهـد قتله انه ضرب اولاً فتلقى الضربة بالسيـف فجرحت يده، واختبط النـاس، وذلك بعد فراغهم من الاكـل على السماط، فأظهر ان ذلك من بعـض الحشيشية فأشار بعضهم على الباقين بـاتمام الامر فيه، وقالوا: بعد جرح الحية لاينبغي إلا قتلهـا٠ فركبوا ولبسوا السلاح واحاطوا بخيمته وبرجه الخشـب لانه كان في الصحراء بإزاء الفرنـج، خذلهم الله، فدخـل البرج خوفـاً منهم، فأمـروا زراقاً باحـراق البرج، فامتنـع فضربت عنقه، ثـم امروا زراقـاً اخر فـرمى البرج بنفـط فأحـرقه، فخـرج من بـابه ونـاشدهـم اللـه في الكف عنـه والاقلاع عما نقمـوا عليـه، وطلب تخليـة سبيله، فلـم يجب الى شيء من ذلك، فـدخل في البحـر الى ان وصل الماء الى حلقـه فرجـع فضربه البنـدقداري بـالسيـف فوقـع في الماء ثم ضربـه بالسيف ضربة اخرى على عاتقه فنـزل السيف من تحت ابط اليد الاخرى فوقع قطعتين، وكـان قتله في أواخر المحرم يوم الاثنين، فبقي مكـانه ذلك

اليوم والغد الى ليلة الاربعاء ونقل الى الجانب الاخر من النيل مجروراً بطرف ثوبه في الماء، فحفر له في الرمل ودفن وتغيب قبره، فانظر الى هاتين الوقعتين العظيمتين الغريبتين، كيف اتفقتا في شهر واحد احداهما في اوله: وهي الكسرة العظمى الذي استأصلتهم، والثانية: قتل السلطان على هذا الوجه الشنيع.

واخبرنا السيف بن الشهاب جلدك والي القاهرة، كان أبوه: أنه لما قتل رمي في جرف على حافة البحر، واردم عليه التراب، فبقي هناك ثلاثة أيام، ثم كشفه الماء، فنقل الى الجانب الاخر من البحر، فدفن هناك.

وحكى قصة قتله عجباً وهو: انه جر في الماء بصنارة، والجار له راكب في مركب، والصنارة بيده تجره في الماء كأنه حوت الى ان عدا به الى الجانب الآخر فدفنه هناك، فكان قتله والناس في غفلة وبهتة من أمرهم، وعوجل فلم يجد ناصراً، ولقد حكى لي المذكور انه بقي يستغيث من أعلى البرج برسول الخليفة يا أبا عز الدين ادركني، وتكرر ذلك فركب في أمره و كلمهم فيه ، فتركوه وخوفوه من القتل وخرق حرمة الخلافة فرجع، فلما فرغ من قتله نادوا: لابأس، الناس على ما هم عليه انما كانت حاجة فقضيناها، واستبدوا بالامر، وامروا عليهم عز الدين أيبك التركماني الملقب بالملك المعز صاحب الديار المصرية وهو واحد منهم. ورجعوا الى القاهرة وكاتب امراء الشام باتباعهم فجرت في ذلك فصول استقرت آخراً على ان قدمت العساكر الحلبية بمن معهم من الملوك من بني أيوب مع سلطانهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، رحمه الله، لأخذ البلاد، والانتقام ممن افسد هذا الامر، وقتل السلطان، فنزلوا على الغوطة والبلد في أوائل ربيع الآخر، وفي يوم الأحد سابع ربيع الآخر دخل العسكر الحلبي مدينة دمشق ضحوة النهار، وفي يوم الاربعاء عاشر الشهر، دخل السلطان، وأمن الناس، وأزال عنهم البأس، وهو الملك الناصر صلاح

الديـن يوسـف بن العـزيز محمد بـن الظاهـر غازي بـن السلطان الكبير المجاهد صلاح الدين يوسف بـن أيوب فاتح بيت المقدس، ثم ارسل الى القـلاع المجـاورة لها فسلمت كبعلبـك، وبصرى، وصرخـد، واعمالها، ثـم سلمـت عجلون والسلـط، وتقـدمت العسـاكـر الى صـوب غزة، وامتنـع حصنا الكرك والشوبـك بالمغيث بن العادل بن الكامـل، وكان قبل ذلك في حبس الصالح أيوب بن الكامـل بحصن الشوبك وأطلق في أيام هذه الفتنة وتسلم الحصنين، وبلغني انه طلب فـأبى وخاف مما جرى على ابن عمه المعظـم بن الصـالح، ثـم سار الملك النـاصر يوسـف لأخذ الـديار المصريـة، ووصـل سلخ شـوال الى العـريـش، وخرج اليـه عسكـر الترك الذيـن بمصر، فوقعت بينهـم وقعة بسمـوط بين الخشبي والعباسـة فانهزم منها العسكـر المصري ونهب، ثم انقطعـت منهم طـائفة، وانهزم الشـامي وذلـك في ذي القعـدة وسلـم السلطـان، وفقد جماعـة كثيرة مـن اقـاربـه وأمرائه بين قتـل وأسر وهرب، ووصلـوا الينا في أواخـر الشهر، وممـن قتل ضياء الـدين القيمـري، وشمس الـدين لـؤلؤ، وحسـام الديـن القيمري، وتـاج الملوك، وأسر المعظـم، والنصرة ابنا صـلاح الـدين، والصـالـح بـن العادل، والاشرف بن المنصور بن أسد الـدين، ثم خلص المأسورون وفقد الصـالـح اسماعيـل ليلة الاحـد عشريـن ذي القعـدة سنـة ثمان واربعين وستمائة، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.

وفي تـاسع عشر مـن ذي القعدة تـوفي المجد الاسفـرائيني قـارىء دار الحديث الأشرفيـة من أول ما فتحت والى الآن، وهـو: أبو عبد اللـه محمد ابن محمـد بن عمـر بن الصفـار من أهـل بيت كبير بـاسفرائين، وكـان المجد رحمه الله من اهل العلم والديـن مقيماً بخانقاه السيمساطي، سمع المؤيد الطـوسي وغيره، حضرت جنازته والصـلاة عليه ظاهـر باب النصر، ومضوا بـه الى مقابـر الصوفيـة رحمه الله، ورجعـت لأني كنت نـاقهاً مـن مرض، والحمد لله على العافية، وعلى كل حال.

وفي الثالث والعشرين من ذي القعدة توفي عندنا بالمدرسة العادلية بدمشق الشيخ الصالح العالم أبو الحسن علي بن عبد الله بن الهادي الضرير الاندلسي الاشبيلي رحمه الله، وكان ساكناً بالبيت الملاصق لباب السقاية وكان رجلاً صالحاً تقياً، فاضلاً في علوم شتى، مقبلاً على شأنه مشتغلاً بأوراده رحمه الله ودفن بمقبرة الصوفية، حضرت دفنه والصلاة عليه، وكان ذلك بعد العصر من يوم الخميس، ورد من الاندلس في سنة إحدى وعشرين وستمائة في البحر، فأسرته الفرنج، ثم نجاه الله منهم، ووصل الى الديار المصرية وحج وجاور وسافر الى بلاد اليمن، ثم ورد مكة، ومنها الى الشام، وسكن دمشق واقرأ بها القرآن، وحفظ التنبيه في مذهب الشافعي، وفهمه وعمل بعلمه رحمه الله.

ثم دخلت
سنة تسع و أربعين و ستمائة

في خلافة المستعصم ، و سلطان دمشق الملك الناصر يوسف بن محمد ابن غازي بن يوسف بن أيوب

ففيها : توفي سعيد بن عبد الله بن جهير القرشي ، صاحبنا في ربيع الأول ، و نجم الدين عثمان بن عمر المراغي ، الشيخ الصالح ، في ربيع الآخر و دفنا بمقابر الصوفية رحمهما الله.

و فيها مات الموفق الخوئي في خامس شعبان و دفن بالجبل ، و فيها: في الثاني و العشرين من ذي القعدة توفي الحسام أبو بكر الحموي الواعظ، بلغ الحسام نيفا و تسعين سنة ، و في ذي الحجة مات الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الكافي الربعي ، و كان قد درس بالكلاسة و الأمينية ، و ناب في القضاء مدة بدمشق و حمص ، و دفن بالجبل .

و فيها : ولدت ابنتي رقية في جمادى الأول بالنصف منه ، و فيها : فرغ اسماعي التاريخ و الروضتين .

و فيها : مات بالديار المصرية خطيب القاهرة الشيخ بهاء الدين علي ابن هبة الله ، و كان أولا معيدا لشهاب الدين الطوسي بمنازل ، ودرس بزاوية الإمام الشافعي بجامع مصر ، و هو ابن بنت الفقيه أبي الفوارس ابن الجميزي رحمه الله ، و كان سمع من الحافظين ابن عساكر والسلفي بالشام و مصر. و من شهدة ببغداد.

و فيها مات صاحبنا العفيف يعقوب المهيوني بمنية ابن خصيب، وكان قاضيها و مدرسها ، و فيها : مات الرشيد عبد الظاهر المقيم بمسجد باب الزهومة رحمه الله.

ثم دخلت

سنة خمسين و ستمائة

ففيها: توفي الرشيد بن مسلمة في ثامن عشر ذي القعدة و دفن بالجبل.

و فيها : توفي بمصر ابن مطروح ، و في الثالث و العشرين من ذي القعدة توفي الشريف عدنان ، و الفقيه كمال الدين اسحاق بن أحمد المقرىء المقيم ، كان بالمدرسة الرواحية ، و كان رحمه الله جامعا بين العلم و العمل ، زاهدا ، مؤثرا ، متواضعا حسن الأخلاق ، و دفن عند قبر شيخه تقي الدين بن الصلاح رحمه الله بالصوفية بالشرف القبلي بدمشق.

ثم دخلت

سنة احدى و خمسين و ستمائة

ففي سادس المحرم توفي الفقيه كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد خطيب زملكا رحمه الله ، و كان فاضلا، عالما، خيرا، متميزا في علوم متعددة ، و تولى قضاء صرخد ، و درس ببعلبك ثم توفي بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

و فيها : في شوال توفيت ابنتي رقية رحمها الله و عمرها سنتان وخمسة أشهر و دفنت بمقابر الصوفية عند قبر أبي الزهر خال أمها ، و كان أبوه الخطيب يعني أبوه كمال الدين يسمى عبد الكريم ، هو ابن خلف بن نبهان بن سلطان بن أحمد بن خليل بن حسن بن سعيد الأنصاري السماكي ، توفي الخطيب المذكور في ذي الحجة سنة ثلاث و ثلاثين وستمائة ، و هكذا وجدت في تاريخ وفاته ، وقيل في سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم دخلت

سنة اثنتين و خمسين و ستمائة

ففيها : تـوفي السديد بن عـلان ، و هو آخر من روى عـن الحافظ أبي القاسم سماعا بدمشق.

و فيها : توفى بحلب النصرة بن صلاح الدين ، و الشيخ كمال الدين ابن طلحة و كـان فاضلا ، عالما ، تولى القضاء ببـلاد بصرى ، و الخطابة بـدمشـق ، ثـم طلـب لمنصـب الوزارة فـأيقظـه اللـه تعـالى ، و زهـد في رئاسات الدنيـا ، و تزهد و انقطع و حج في هذه السنـة ، و لما رجع من الحج أقام بدمشق قليـلا ، و سمع عليه فيها رسالة القشيري ، ثـم سافر إلى حلب فتـوفي بها في السابع و العشرين مـن رجب من السنـة المذكورة رحمه الله ، و فيها : توفى فارس الدين يوسف بن السلار بدمشق.

و قتـل بمصر فارس الـديـن أقطاي الـذي تغلـب على البلاد و قهـر أهلها،و تقدم على البحريـة الذين أهلكوا الناس ، و استقر ملـك الديار المصرية لأيبك التركماني ، و يلقب بالملك المعز .

و فيهـا : تـوفي العفيـف أحمد الصيـداوي ، و كـان شيخـا مشتغـلا بـالبحـث في أخبار النبـي صلى اللـه عليـه و سلم ، و الفقـه ، و كتـب الرقائق إلى أن مـات رحمه الله في شعبان . و فيها : تـوفي الكمال بن تميم، و فيها : في رابع شوال تـوفي الناصح فرج بن عبد اللـه الحسيني المعروف بفتى الشيـخ أبي جعفر ، رحمه الله ، و كـان يسند ، كثير السماع ، خيرا، صالحا ، مواظبـا على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بـدار الحديث النورية .

و فيها : في الخامس و العشرين من شوال توفي بدمشق الشيخ شمس الدين عبد الحميد بن عيسى بـن أبي بكر بن أيوب، و كان شيخا نبيها، فاضلا، متواضعا حسن الظاهر .

ثم دخلت

سنة ثلاث و خمسون و ستمائة

ففيها : ليلة الاثنين ثامن عشر صفر توفي بحلب الشهاب الفقيه ضياء الدين سنقر بن يحيى رحمه الله، و كان فاضلا، دينا ، ورعا و من شعره

من ادعى أن له حاجة
تخرجه عن منهج الشرع
فلا تكونن له صاحبا
فإنه ضرب لا نفع

و له معجم حكي فيه عن شيوخه و عمل فيه بعض الفضلاء :

كم معجم طالعته مقلتبي فبدا
للحظها منه فضل غير منقوص
فلا سمعت ولا عاينت في زمني
أتم في فضله من معجم القوصي

قلت : طالعته فرأيت فيه أغاليظ كثيرة، وتصحيف أسماء وتبديلها، وأول ذلك في نسب نفسه بأنه انتسب الى سعد بن عبادة الانصاري، وظن أن عبادة هذا هو عبادة بن الصامت، وإنما هو عبادة بن دليم، وعبادة بن الصامت صاحب كبير غير هذا، وصحف في سند خرقة التصوف حبيباً أبا محمد حسيناً كل ذلك بخطه.

وفيها: يوم الاثنين سابع عشر ربيع الأول توفي الشهاب القوصي بدمشق أبو العرب اسماعيل بن حامد بن عبد الرحمن الأنصاري، ودفن بداره بالقرب من الرحبة، وكان قد وقفها دار حديث رحمه الله. وكان ظريفاً حسن المحاضرة.

وفيها : في الثالث والعشرين من شوال توفي الشمس محمد بن عبد العزيز بن خلدون الشاعر الكاتب ، ولجده ذكر في تاريخ دمشق رحمه الله.

وفيها: بعد صلاة الصبح من يوم السبت الخامس والعشرين من شوال ولد لي ولد ذكر وأمه قريشية من بني عبد الدار بن قصي فأسميته أحمد، وكنيته أبا الهدى جعله الله بفضله هادياً مهدياً، وجاءني بعد خمس مرضات فدعوت الله أن يرزقني ولداً ذكراً.

وجاءنا الخبر من حلب بوفاة الشريف المرتضى نقيب الأشراف بها رحمه الله، ومن مصر بموت العباس بن ثابت المقرىء.

ثم دخلت

سنة أربع وخمسين وستمائة

ففيها: توفي الشيخ عماد الدين عبد الله بن الحسن بن الحسين المعروف بابن النحاس بمسكنه بالجبل رحمه الله، وكان زاهداً، خيراً من كبار الناس ونبلائهم، وكان في أذنيه صمم فانتفع بذلك وخلص من استماع أحاديث الناس، فانتفع بالعبادة معتكفاً بمسجده، تالياً في مصحفه، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من صفر رحمه الله تعالى.

وفيها: في ربيع الآخر توفي الزكي بن الفويرة أحد المعدلين بدمشق يوم الجمعة، وفي غد يوم السبت توفي الشمس عبد الرحمن بن نوح بن محمد ابن ابراهيم المقدسي الشافعي مدرس الرواحية بعد شيخه التقي بن الصلاح، ودفن في أول مقابر الصوفية في ثامن الشهر المذكور، وبلغني أنه كان له جنازة حفلة وكنت غائباً عنها رحمه الله. وكثر موت الفجأة في تلك الأيام فمات بها جماعة منهم: مؤذن مدرستنا العادلية الشمس الخوارزمي وغيره.

وفيها: توفي صاحبنا الأمير مظفر الدين ابراهيم بن الأمير عز الدين أيبك المعظمي، أستاذ الدار لصاحب صرخد رحمه الله، وتوفى أبوه قبله بالديار المصرية، ثم نقل الى تربته في القبة التي بناها بمدرسته التي على طريق الميدان الأخضر الكبير الشمالي، وله مدرسة أخرى داخل دمشق بالكشك تعرف قديماً بدار ابن منقذ.

وفيها: ليلة السادس عشر من جمادى الآخرة خسف القمر أول الليل، وكان شديد الحمرة، ثم انجلى، وكسفت الشمس في غده احمرت وقت

طلوعها وقريب غروبها وبقيت كذلك أياماً متغيرة اللون ضعيفة النور والله تعالى على كل شيء قدير، واتضح بذلك ماصوره الشافعي رحمه الله من اجتماع الكسوف والعيد واستبعده أهل النجامة.

وجاء الى دمشق كتب من المدينة على ساكنها السلام بخروج نار عندهم في خامس جمادى الآخرة، وكتبت الكتب في خامس رجب والنار بحالها، ووصلت الكتب الينا في عاشر شعبان.

وفي أول يوم رمضان شنق العز الخلاطي نفسه. في بيته بالمدرسة العادلية، أعاذنا الله تعالى من البلاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

ورد الى مدينة دمشق حرسها الله تعالى في أوائل شعبان من سنة أربع وخمسين وستمائة كتب من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها شرح عظيم حدث بها، فيه تصديق لما في الصحيحين من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الابل ببصرى»، فأخبرني بعض من أثق به ممن شاهدها بالمدينة بلغه أنه كتب بتيماء على ضوئها الكتب، قال وكنا في بيوتنا تلك الليالي، وكان في دار كل واحد منا سراجا ولم يكن لها ضوء بقدر عظمها، وإنما كانت آية من آيات الله تعالى، وهذه صورة ماوقفت عليه من الكتب الواردة فيها: لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة دوى عظيم، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها المدينة، والحيطان، والسقوف، والأخشاب، والأبواب ساعة بعد ساعة الى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة في الحرة قريباً من قريظة نبصرها من دورنا بداخل المدينة كأنها عندنا، وهي نار عظيمة اشعالها أكثر من ثلاث منائر،

وقدسالت أودية منها بالنار الى وادي شظاةسيل(١٢٨) الماء. وقد سدت سبيل شظاة وما عاد بسبيل، والله لقد طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسير نيرانا، وقد سدت الحرة طريق الحاج العراقي فسارت الى أن وصلت الحرة فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا ورجعت تسير في الشرق ويخرج من وسطها سهول وجبال نيران تأكل الحجارة، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى في كتابه العزيز فقال عز من قائل: (انها ترمي بشرر كالقصر. كأنه جمالات صفر)(١٢٩).

وقد أكلت الأرض، وقد كتبت هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة، والنار في زيادة ماتغيرت، وقد عادت الى الحرار في قريظة طريق عير الحاج العراقي الى الحرة كلها نيران تشتعل نبصرها في الليل من المدينة كأنها مشاعيل الحاج، وأما أم النار الكبيرة فهي جبال نيران حمر، والأم الكبيرة التي سالت النيران منها من قريظة، وقد زادت، وماعاد الناس يرون أي شيء بعدذلك والله يجعل العاقبة الى خير، وما أقدر أن أصف هذه النار.

وفي كتاب آخر: ظهر في أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة في شرقي المدينة نار عظيمة، بينها وبين المدينة نصف يوم انفجرت من الأرض، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد، ثم وقفت وعادت وإلى الساعة لاندري ماذا نفعل، ووقت ماظهرت دخل أهل المدينة الى نبيهم عليه الصلاة والسلام مستغفرين تائبين الى ربهم، وهذه دلائل القيامة.

وفي كتاب آخر: لما كان يوم الاثنين مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة وقع صوت يشبه الرعد البعيد تارة وتارة، أقام على هذه الحال يومين، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام يقع في اليوم

والليلة أربع عشرة زلـزلة، فلما كان في يوم الجمعة خامـس الشهر المذكور انبجست الحرة بنار عظيمـة يكون قدرها مثـل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلـم، وهي بـرأي العين من المدينة نشـاهدهـا، وهي (تـرمي بشرر كالقصر) كما قـال الله تعالى، وهـي بموضـع يقال لـه أحيلين(١٣٠)، وقد سال من هذه النـار واد يكون مقداره أربع فراسخ، وعـرضه أربعة أميال، وعمقـه قامـة ونصف، وهـي تجري على وجـه الأرض، ويخرج منها أمهـاد وجبـال صغـار يسير على الأرض وهـو صخـر يـذوب حتـى يبقـى مثـل الآنك(١٣١)، فاذا خمد صـار أسود، وقبل الخمود لونـه أحمر، وقد حصل بطريق هـذه النار اقلاع عن المعـاصي والتقرب الى الله تعالى بالطـاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة الى أهلها.

ومن كتـاب شمس الـدين سنان بـن عبد الوهـاب بن تميلـة الحسيني قاضي المدينة الى بعض أصحابه: لما كـان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة، حـدث بالمدينة في الثلـث الأخير من الليـل زلزلة عظيمـة أشفقنا منها وباتت بـاقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلـة قدر عشر نوبات، والله لقـد زلـزلت مـرة ونحـن حـول حجـرة رسول الله صلى الله عليـه وسلـم اضطـرب لها المنبر الى أن أوجسنـا منـه صـوتـاً للحـديـد الـذي فيـه واضطربت قناديـل الحرم الشريف النبوي، ودامت الزلزلـة الى يوم الجمعة ضحى، ولها دوي مثـل دوي الرعـد القاصـف، ثم طلـع يوم الجمعـة في طريـق الحرة في رأس أحيلين نار مثل المدينة العظيمـة، وما بانـت لنا إلا ليلة السبت وأشفقنا منها وخفنـا خوفاً عظيما، وطلعت الى الأمير وكلمته، وقلت لـه: قد أحـاط بنا العذاب أرجـع إلى الله فاعتـق كل ممـاليكه، ورد على جماعة أمـوالهم، فلما فعل هذا قلت لـه: أهبط الساعة معنـا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فهبـط وبتنا ليلة السبت والنـاس جميعهم، والنسوان وأولادهـم ولابقـي أحد لافي النخيـل ولافي المدينة إلا عنـد النبي صلى الله عليه وسلـم، وأشفقنا منهـا وظهر ضـوءها إلى أن أبصرت مـن مكة ومـن الفـلاة جميعها، ثـم سـال منها نهر مـن نـار وأخذ في وادي أحيلين وسـد

الأربعاء الثالث من جمادى الآخرة، ومن قبلها بيومين عاد الناس يسمعون صوتاً مثل الرعد ساعة بعد ساعة، ومافي السماء غيم حتى نقول إنه منه، يومين إلى ليلة الأربعاء، ثم ظهر الصوت حتى سمعه الناس، وتزلزلت الأرض ورجفت بنا رجفة لها صوت كدوي الرعد فانزعج لها الناس كلهم، وانتبهوا من مراقدهم، وضج الناس بالاستغفار إلى الله تعالى وفزعوا إلى المسجد وصلوا فيه ودامت ترجف بالناس ساعة بعد ساعة إلى الصبح، وذلك اليوم كله يوم الأربعاء وليلة الخميس كلها، ويوم الخميس وليلة الجمعة، وصبح يوم الجمعة الخامس من الشهر ارتجت الأرض رجة قوية إلى أن اضطرب منار المسجد بعضه ببعض، وسمع لسقف المسجد صرير عظيم، وأشفق الناس من ذنوبهم، وسكنت الزلزلة بعد صبح يوم الجمعة إلى قبل الظهر، ثم ظهرت عندنا بالحرة وراء قريظة على طريق السوارقية بالمقاعد مسيرة من الصبح الى الظهر نار عظيمة تنفجر من الأرض، فارتاع الناس لها روعة عظيمة. ثم ظهر لها دخان عظيم في السماء ينعقد حتى يبقى كالسحاب الأبيض إلى قبل مغيب الشمس من يوم الجمعة، ثم ظهرت لها ألسن تصعد في الهواء إلى السماء حمراء كأنها العلقة، وعظمت وفزع الناس إلى المسجد النبوي، وأقروا بذنوبهم، وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيه عليه السلام، وأتى الناس إلى المسجد من كل فج ومن النخل، وخرج النساء من البيوت، والصبيان، واجتمعوا كلهم فأخلصوا لله وغطى حمرة النار السماء كلها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصل، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله، ومتنصل من ذنبه، ومستغفر وتائب، ولزمت النار مكانها، وتناقص تضاعفها ذلك ولهيبها، وصعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظونه، فطرح المكس، وأعتق مماليكه كلهم وعبيده، ورد علينا كل مالنا تحت يده وعلى غيرنا، وبقيت تلك النار على حالتها تلتهب التهاباً، وهي كالجبل العظيم، وكالمدينة العظيمة ارتفاعاً

الطريق ثم طلع الى بحرة الحجاج وهو بحر نار بحري وفوقه جمر يسير إلى أن قطعت النار الوادي وادي الشظاة، وماعاد يجيء في الوادي سيل قط لأنها حرة تجيء قامتين وثلث علوها، وبالله ياأخي إن عيشتنا اليوم مكدرة، والمدينة قد تاب جميع أهلها ولابقي تسمع فيها رباب، ولادف، ولاشرب، وتمت النار تسير إلى أن سدت بعض طريق الحاج وبعض بحرة الحاج، وجاء في الوادي منها الينا قتير، وخفنا أنها تجيئنا، واجتمع الناس ودخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم وباتوا عنده جميعهم ليلة الجمعة، وأما قتيرها الذي مما يلينا فقد طفىء بقدرة الله سبحانه وتعالى، وإنها إلى الساعة مانقصت إلا ترمى مثل الجمال حجارة من نار، ولها دوي مايدعنا نرقد، ولانأكل، ولانشرب، وماأقدر أصف لك عظمها ، ولامافيها من الأهوال، وأبصرها أهل ينبع وندبوا قاضيهم ابن أسعد وجاء وعدا إليها وما أصبح يقدر أن يصفها من عظمها، وكتب الكتاب يوم الخميس من رجب وهي على حالها، والناس منها خائفون، والشمس والقمر من يوم طلعت ماتطلعان إلاّ كاسفين فنسأل الله العافية.

قلت: بان عندنا بدمشق أثر الكسوف من ضعف نورها على الحيطان، وكنا حيارى من ذلك إلى أن جاءنا الخبر عن هذه النار.

ومن كتاب آخر من بعض بني القاشاني بالمدينة يقول فيه: وصل الينا في جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرق عظيم حتى دخل الماء من أسوار بغداد إلى البلد، وغرق كثيرمن البلد، ودخل الماء دار الخليفة وسط البلد، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون داراً، وانهدم مخزن الخليفة، وهلك من خزانة السلاح شيء كثير، بل تلف كله، وأشرف الناس على الهلاك، وعادت السفن تدخل إلى وسط البلد وتخترق أزقة بغداد.

قال: وأما نحن فإنه جرى عندنا أمر عظيم لما كان بتاريخ ليلة

وعرضاً، تخرج منها حصى يصعد في السماء ويهوي فيها، ويخرج منها كالجبل العظيم نار ترمي كالرعد وبقيت كذلك أياماً، ثم سالت سيلاناً في وادي أحيلين تنحدر مع الوادي إلى الشظاة حتى كادت تقارب حرة العريض، ثم سكنت ووقفت أياماً، ثم عادت النار تخرج وترمي بحجارة خلفها وأمامها حتى بنت لها جبلين خلفها وأمامها، ومابقي يخرج منها من بين الجبلين لسان لها أياماً، ثم أنها عظمت الآن وسناها إلى الآن وهي تتقد كأعظم مايكون، ولها كل يوم صوت عظيم من آخر الليل إلى ضحوة، ولها عجائب ماأقدر أن أشرحها لك على الكمال، وإنما هذا طرف منها كبير يكفي، والشمس والقمر كأنهما منكسفان إلى الآن، وكتبت هذا الكتاب ولها شهر وهي في مكانها ماتتقدم ولاتتأخر حتى قال فيها بعضهم أبياتاً:

ياكاشف الضر صفحاً عن جرائمنا
لقد أحاطت بنا يارب بأساء
نشكو اليك خطوباً لانطيق لها
حملاً ونحن بها حقاً أحقاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لها
وكيف يقوى على الزلزال شماء
أقام سبعاً تُرج الأرض فانصدعت
عن منظر منه عين الشمس عشواء
بحر من النار تجري فوقه سفن
من الهضاب لها في الأرض ارساء
يرى لها شرر كالقصر طائشة
كأنها ديمة تنصب هطلاء
تنشق منها قلوب الصخر إن زفرت
رعباً وترعد مثل السيف أضواء
منها تكاثف في الجو الدخان إلى
أن عادت الشمس منه وهي دهماء

قـــد أثـــرت سفعـــة في النـــار لفحتهـــا
قليلـــة التـــم بعـــد النـــور ليـــلاء
تحدث النيرات السبـــــع ألسنهـــــا
بما يـــلاقـــي بها تحت الثـــرى الماء
وقـــد أحـــاط لظـــاهـــا بـــالبروج إلى
أن كـــاد يلحقهـــا بـــالأرض إهـــواء
فيـــا لها آيـــة مـــن معجـــزات رســـول اللـــ
ـــــه يعقلهـــا القـــوم الألبـــاء
فبإسمـــك الأعظـــم المكنـــون إن عظمـــت
منـــا الـــذنـــوب وســـاء القلـــب أســـواء
فـــاسمـــح وهـــب وتفضـــل وأمـــح واعـــف
وجـــد واصفـــح فكـــل لفـــرط الجهـــل خطـــاء
فقـــوم يـــونـــس لما آمنـــوا كشـــف الـــ
ـــــعذاب عنهـــم وعـــم القـــوم نعماء
ونحـــن أمـــة هـــذا المصطفـــى ولنـــا
منـــه إلى عفـــوك المرجـــو دعـــاء
هـــذا الـــرسـول الـــذي لـــولاه مـــا سلكـــت
محجـــة في سبيـــل الله بيضـــاء
فـــارحـــم وصـــل على المختـــار مـــا خطبـــت
على عـــلا منبر الأوراق ورقـــاء.

ونظم بعضهم في هذه النار وغرق بغداد بيتين:

سبحـــان مـــن أصبحـــت مشيئتـــه
جـــاريـــة في الـــوادي بمقـــدار
أغـــرق بغـــداد بـــالمياه كما
أحـــرق أرض الحجـــاز بـــالنـــار

قلـــت : كـــان ينبغـــي أن ينبه على أن الأمـرين في سنة واحدة، وإلا فـالاغراق والاحـراق يقعان

كثيراً، فالصواب أن يقال:

في سنـــــة أغـــــرق العـــــراق وقـــــد
أحـــــرق أرض الحجـــــاز بـــــالنـــــار

وفيها: في ليلـة الجمعة أول ليلـة من شهر رمضـان هذه السنـة، وهي سنـة أربـع وخمسين وستمائة احترق مسجد المدينـة على ساكنهـا السلام، ابتدأ الحريق مـن زاويته الغربية مـن الشمال، وكان دخل أحد القـومة إلى خزانة ثـم ومعه نار فعلقت في الآت ثـم واتصلت بالسقف بسرعـة، ثم دبت في السقـوف آخذة قبلـة فأعجلـت الناس عـن قطعها، فما كـان إلا سـاعة حتـى احترقت سقـوف المسجـد جميعها، ووقعـت أساطينـه وذاب رصاصهـا وكل ذلك قبل أن ينـام الناس، واحترق سقف الحجرة النبـوية على ساكنها السلام، ووقع ماوقـع منه في الحجرة، وبقي على حاله لما شرع في عمارة سقفه وسقـف المسجد، وكان ذلـك ليلة الجمعة وأصبـح الناس فعزلـوا مواضـع للصلاة وعـدوا ماوقـع من تلـك النار الخارجـة وحريـق المسجـد من جملـة الآيات وكـأنها منـذرة بما يعقبها في السنـة الآتية مـن الكـائنات على مـاسنذكـره إنشاء الله تعـالى، ونظمت في حـريق مسجـد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لم يحترق حـــــــرم النبـــــــي لحادث
يخشـــــى عليـــــه ولادهـــــاه العـــــار
لكنكما أيـــــدي الـــــروافـــــض لامســـــت
ذاك الجنـــــاب فطهـــــرتـــــه النـــــار

وقلت أيضاً لسبب السنة:

بعـــــدســـــت مـــــن المئين وخمسين
لـــــدى أربـــــع جـــــرى في العـــــالم
نـــــار أرض الحجـــــاز مـــــع حـــــرق
المسجـــــد مـــــع غـــــريـــــق دار السنـــــلام

ثـــم أخـــذ التـــاتـــار بغـــداد في
أول عـــام مـــن بعـــد ذاك العـــام
لم يفـــن أهلهـــا وللكفـــر أعـــوان
عليهـــم يـــا ضيعـــة الاســـلام
وانقضـــت دولـــة الخلافـــة منهـــا
صـــار مستعصـــم بغير إعتصـــام
رب سلـــم وصـــن وعـــاف بقـــايـــا
المدن يـــا ذا الجلال والاكـــرام
فحنـــانـــا على الحجـــاز ومصر
وســـلام على بـــلاد الشـــام

وفي ذي القعدة توفي مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب في يوم الأربعاء سادس عشر الشهر المذكور، ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية.

وفي الخامس والعشرين من ذي القعدة توفي معين الدين محمد بن عبد الله بن عصرون، وكان أيضاً شاباً حسناً فاضلاً متميزاً، أحد من اشتغل عليّ رحمه الله، ومات قبله بأيام ابن عمه مجير الدين بن محيي الدين ابن عصرون. وكان أيضاً شاباً حسناً من أولاد الأكابر بدمشق.

وفي يوم الجمعة ثالث ذي الحجة توفي العز بن أبي طالب بن عبد الغفار التغلبي، يعرف بابن الحثوي وجده لأمه هو القاضي جمال الدين أبو القاسم الحرستاني الأنصاري، رحمه الله تعالى.

وفي يوم الخميس تاسع ذي الحجة وهو يوم عرفة توفي شمس الدين محمد بن المبارك السنجاري، وكان سخياً فاضلاً، سمع معي كثيراً من كتب الحديث وغيرها، لما أسمعت ولدي محمداً رحمه الله. واسمه معه في

طباق كثيرة، ثم سافر إلى مصر، وحج وجاور سنين كثيرة بالحرمين، ثم قدم دمشق، فأقام بها نحو عامين، وتوفي رحمه الله تعالى.

وفيها: ليلة الثلاثاء الحادي والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ شمس الدين يوسف سبط الإمام أبي الفرج بن الجوزي الواعظ رحمه الله، بمنزله بالجبل، ودفن هناك وحضر جنازته خلق عظيم، سلطان البلد فمن دونه، وكنت مريضاً حينئذ فلم يقدر لي حضورها، ورأيت موته مناماً تلك الليلة قبل أن أسمع به يقظة إلا أني رأيته في حالة منكرة، ورأى غيري كذلك نسأل الله العافية. ودرس بالمدرسة الشبلية مدة كان سكنه يومئذ بالتربة البدرية الحسنية قبالتها على ثورا، وكان فاضلاً، عالماً، ظريفاً منكراً على أرباب الدولة ماهم عليه من المنكرات لزم آخر عمره سنين كثيرة ركوب الحمار طالعاً عليه إلى منزله بالجبل ونازلاً عليه إلى مدرسة العزبة بالشرف الشمالي وإلى غير ذلك، مقتصداً في لباسه، مواظباً على المطالعة والاشتغال والجمع والتصنيف ،منصفاً لأهل العلم والفضل مباينا لأولى الجبرية والجهل، يأتي الملوك وأرباب الدول إليه زائرين وقاصدين، وربي طول زمانه في جاه عريض عند الملوك، والعوالم نحو خمسين سنة، وكان مجلس وعظه مطربا، وصوته فيما يورده فيه حسناً طيباً، رحمه الله ورضي عنه.

وفيها: يوم الأربعاء الثاني والعشرين من ذي الحجة توفي الشيخ بدر الدين المراغي شيخ خانقاه الطاحون، وقع به سلم من أعلاه إلى الوادي، وكان شخصاً حسناً صالحاً فقيهاً، تولى العقود مدة، والقضاء بوادي بردى، ثم انقطع في هذه الخانقاه في آخر عمره إلى أن توفي بها رحمه الله ورضي عنه.

ثم دخلت

سنة خمس وخمسين وستمائة

ففي أول ربيع الأول توفي الأمير بدر الدين بن الحسن المغربي الميروقي، وكانت له بنت عندنا بالمدرسة العادلية، ودفن بالجبل بمقبرة ابن يغمور رحمه الله وهو من أقارب الميروقي الملك المشهور ببلاد الغرب.

وفيها: في ثامن ربيع الأول توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني، بقرية يلدا(١٣٢) ودفن بها، وكان شيخاً صالحاً مشتغلاً بالحديث سماعا إلى أن توفي، وله نحو من مائة سنة، أخبرني أنه كان مراهقاً في سنة سبع وستين رحمه الله حين طهر نور الدين بن زنكي ولده، وأنه حضر الطهور، ولعب الأمراء بالميدان في فرشة مع الصبيان، وأخبرني أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يارسول الله بالله ماأنا رجل جيد؟ فقال: بلى أنت رجل جيد، أسمعت عليه ولدي أبا الحزم محمداً رحمه الله كثيراً بقراءتي عليه وقراءة غيري، وأجاز لابني أبي الهدى أحمد أنشأه الله صالحاً رواية جميع مايجوز له عنه روايته رحمه الله.

وفيها: في منتصف ربيع الأول توفي الشيخ شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي رحمه الله، في طريقه من مصر إلى الشام، ودفن بمنزله بين العريش والداروم، وكان شيخاً فاضلاً متقياً كثير الحج محقق البحث مقتصداً في أموره، كثير الكتب معتنياً بالنفيس منها محصلاً لها، وقد كان أعطي قبولاً بالبلاد الاسلامية، لايحل في بلد إلاّ ويكرمه رؤساؤها وأهلها، وأكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام، وفي أوائل شهر ربيع الآخر جاءنا الخبر من ديار مصر بموت ملكها حينئذ عز الدين أيبك التركماني أحد مماليك نجم الدين أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب، وهو الذي غلب عليها بعد قتل ابنه المعظم بن الصالح بن الكامل، وتلقب بالملك

المعز، وكثر الظلم والقتل بتلك الديار من المماليك المعروفين بالبحرية في أموال المسلمين ونسائهم، وأولادهم إلى أن قتل رفيقه فارس الدين أقطاي، ثم مات هذا التركماني بداره بغتة ولايعلم سبب موته، وتعصب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقبوه بالملك المنصور نور الدين علي، وضرب الدراهم باسمه واتهموا زوجة التركماني أنها قتلته، فأعدموها وكانت جارية لسيدهم الملك الصالح أيوب بن الكامل، تكنى أم خليل بابن له منها درج، وتلقب شجر الدر، الله يصلح أمور المسلمين، وكانت أيضاً قد خنقت وزيرها القاضي الأسعد شرف الدين الفائزي

وفي هذه السنة نظمت قصيدتين في أم ولدي أحمد ست العرب ابنة شرف الدين محمد بن علي بن دنو القرشي العبدري الأندلسي المرسي، وكان من أهل الفضل والرئاسة في الدنيا ومن وجوه بلده:

تزوجت من أولاد دنو عقيلة
بها من خصال الخير ما حير العقلا
مكملة الأوصاف خلقاً وخلقه
فأهلاً بها أهلاً وسهلاً بها سهلا
ولود ودود حرة قرشية
مخدرة مع حسنها تكرم البعلا
وباذلة نظيفة ولطيفة
من أظرف انسان وأحسنهم شكلا
صبور شكور حلوة وفصيحة
ومتقنة أي تتقن القول والفعلا
تغار من أسباب النقائص كلها
وتحفظ مال الزوج والنفس والأهلا
حصان رزان ليس فيها تكبر
قنوع فلا شرب يدوم ولا أكلا
مطاوعة للبعل يقظى أديبة
موافقة قولاً وفعلاً فما أعلا

صغيرة ســـــــن في الكـــــــلام كبيرة
نهـــاهـــا يـــري بـــالهـــا الحلم والجهـــلا
يشرن عليهـــــا بـــــالتفـــــرج مـــــرة
فتـــأبـــى وقعـــر البيـــت في عينهـــا أحلى
مـــداريـــة لـــلأهـــل إن عتبـــت وإن
أحبـــت فـــلا عقـــد لـــديها ولاغـــلا
رقيقـــة قلـــب مـــع ســـلامـــة دينهـــا
فلســـت تـــرى شبهـــاً لها في النســـا أصـــلا
خـــدوم بقلـــب في جميـــع أمـــورهـــا
مبـــاشرة للكـــل مـــادق أو جـــلا
مـــلازمـــة للشغـــل في البيـــت دائما
على صغـــر مـــن سنهـــا لاتنـــي فعـــلا
مطـــرزة خيـــاطـــة ذهبيـــة
مفصلـــة خطـــاطـــة تحكـــم الغـــزلا
تنقـــل في الأشغـــال مـــن ذا وذا وذا
وتفعـــل حتـــى الكنـــس والطبـــخ والغســـلا
ومـــاذاك مـــن عـــدم فلـــم يخل بيتهـــا
مـــن امـــرأة تكفـــي إذا شـــاءت الفعـــلا
ولكنهـــا اعتـــادت نظـــافـــة شغلهـــا
فعـــافـــت فعـــال الكـــل واحتملـــت فعـــلا
خفيفـــة روح مـــع وقـــار ذكيـــة
فتفهـــم مـــا يلقـــى لـــديها ومـــا يتلى
وان نظـــرت مـــالم تعـــرفـــه صممـــت
عليـــه إلى أن تحتـــويـــه ومـــا اختـــلا
لها همة عليـــا تطـــول روحهـــا
على صعـــب الأشغـــال تتركـــه سهـــلا
مـــربيـــة حنـــانـــة ذات رحمة
فكـــل يتيـــم واحـــد عنـــدهـــا فضـــلا

نفـــور إذا ارتـــابـــت ألـــوف أهلهـــا
فمهـــلاً إذا قيـــس النســـاء بها مهـــلا
كـــذلـــك كـــان الحظ لما تعـــرضـــت
لـــه حـــاصـــلاً فيهـــا صحيحـــاً ومـــا اعتـــلا
سريعـــة دمـــع العين مـــن رقـــة بها
فيـــا بعـــد أن تلقـــى لها في النســـا مثـــلا
عـــديمـــة لفـــظ والتفـــات إذا مشـــت
صمـــوت فـــلا قطعـــا تـــرد ولا وصـــلا
ولم ينكشـــف منهـــا بنـــان يحار مـــن
مشـــى معهـــا في حفظهـــا يـــدهـــا قبـــلا
يعـــز على مـــن يطـــرق البـــاب لفظهـــا
جـــوابـــا فـــلا عقـــد تـــراه ولا حـــلا
يطيـــل وقـــوفـــاً لا يجاب محرم
عليهـــا كـــلام الأجنبـــي وإن قـــلا
تميـــز حتـــى في الكـــلام فـــلا تـــرى
لها لفظـــة إلا وقـــد وقعـــت فصـــلا
ولســـت تـــرى مـــن لثغـــة في كـــلامهـــا
فـــألفـــاظهـــا درينضـــد أو أغلى
إذا أبصرت مـــا فيـــه عيـــب لها أبـــت
وتفعـــل مـــا تهوى طـــريقتهـــا المثلى
وحـــافظـــة للغيـــب صـــالحة أتـــت
لحق إذا كـــانـــت منـــاقبهـــا تتلى
وقـــانتـــة صـــوامـــة ومـــدلـــة
بعقـــل وتـــدبير تـــراه العـــدا بخـــلا
يقـــر لها بـــالفضـــل في العقـــل كـــل مـــن
يـــراهـــا مـــن النســـوان مـــا تعـــرف الهزلا
مـــن المحصنـــات الغـــافـــلات فمـــن رمـــى
حصـــانتهـــا يلعـــن وذاك بـــه أولى

تجمع فيها عفة ونزاهة
وعزة نفس فهي تكلا ولا تقلا
وأحسن من ذا كله ان هذه
الخصائل طبع لم تكلف لها حملا
تقل نظير في نساء زماننا
فلا تعذلوني في محبتها عذلا
بنيت بها بنتا لأربع عشرة
وهذه الخصال الغر في ذاتها تحلا
وأوصافها في كل عام تزايدت
ولم تتغير قط سيرتها الأولى
وحسبك عشر من سنين لها انقضت
معي لم أقل أف لديها ولا كلا
ولقد جملت لاغير الله ما بها
عشيرتها والأمر من بعد ذا أعلى
فلله حمد دائم ونسائله
مزيد الذي أسدى وتتميم ما أولى
ولكن فيها نفرة وتغيضا
وسرعة غيظ عند لفظ لها يعلا
فوالله ما أدري أذلك مسقط
مناقبها عند الجحود لها أم لا

و خامس عشر جمادى الآخرة توفي بدمشق الشيخ أبو العباس أحمد ابن يوسف التلمساني المقيم بالمنارة الشرقية بالجامع من سنين كثيرة، وكان شيخاً معمراً منقطعاً عن الناس محباً للعزلة، ودفن بالجبل، وكان يروي كتاب الأحكام الصغرى لعبد الحق الاشبيلي عن البرهان بن غلوش، مدرس المالكية بدمشق عن المصنف رحمه الله.

وفي يوم الأربعاء ثامن عشر ذي الحجة عمل صلاة الغائب عن الشيخ نجم الدين البادرائي هو:

أبو محمد عبد الله بن أبي الوفاء محمد بن الحسن بن عبد الله بن عثمان ابن أبي الحسن حسون، مولده يوم الجمعة بعد العصر سلخ المحرم سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وتوفي يوم السبت مستهل ذي الحجة سنة خمس وخمسين وستمائة ببغداد، ودفن قريباً من الجنيد رضي الله عنه، درس بالنظامية وبمدرسته التي أنشأها بدمشق في موضع دار سامة، وكان شيخاً فاضلاً صالحاً، فقيهاً، كريماً، متواضعاً وكان يقدم الشام والديار المصرية رسولا من قبل آخر خلفاء بغداد وهو: المستعصم بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء، وبنى بدمشق المدرسة المذكورة وهي مدرسة حسنة للفقهاء الشافعية، ووقف عليها وقوفاً حسنة، وجعل بها خزانة كتب جيدة، ثم رجع إلى بغداد في هذه السنة فولي قضاة القضاء بها على كره منه لذلك، وأخبرني من حضر موته ببغداد أن وفاته كانت أول يوم من ذي الحجة، ودفن بمقبرة الشونيزي وبقي في القضاء سبعة عشر يوماً، وبعد موت البادرائي بأيام قلائل نزلت التاتار خذلهم الله على بغداد، والخليفة بها يومئذ هو المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن المستضيء ابن المستنجد، واستولوا عليها في السنة الآتية كما سيأتي ذكره.

وفي ذي الحجة من هذه السنة توفي الشيخ يوسف الواسطي الأعرج المقرىء، كان بجامع دمشق تحت قبة النسر، وكان أحد القراء بالتربة الأشرفية، وكان أحد الشيوخ الصلحاء الصابرين على البلاء، كان مصاباً بيديه ورجله، ومع ذلك هو مرابط على الطهارة، والصلاة، وقراءة القرآن وايثار الفقراء، وهو من أصحاب الطائفة الرفاعية الواسطية، ومن مشايخهم بدمشق، وكانت وفاته بالمدرسة الصادرية بحضرة باب الجامع من جهة باب البريد رحمه الله، ومات سيف الدين المشد علي بن عمر بن قزل الشاعر صاحب الديوان في تاسع المحرم.